بسم الله الرحمن الرحيم

التهكم والسخرية

فى الشعر الجاهلى

دكتـــورة

آمال كمال ضرار محمد

المدرس بقسم الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية

بالإسكندرية

التهكم والسخرية فى الشعر الجاهلى

للسخرية والتهكم دور مهم فى التعبير الأدبى ، لما لاصطناع هذا الأسلوب من أثر فى تعميق الانتقاد وإبراز جانب الاستهزاء ممن يوجَّه إليه الأديب شاعراً أو ناثراً سهام نقده أو هجائه وتوظيف السخرية فى التعبير الأدبى ظاهرة قديمة بل لعلها قد عرفت منذ أقدم العصور وإن كنا نلاحظ أنها تتلون فى كل عصر بحسب ما يستجد فيه من فكر واعتقاد ، وهى سلاح فعال فى التأثير يوظفه الأدباء ليصبوا من خلاله جام سخطهم وازدرائهم على ما ينتقدونه أو يعجبون منه ويدهشون من مسلكه وقد استرعى اهتمامى وجود ظاهرة السخرية فى الشعر الجاهلى ، واقتدار كثير من شعراء الجاهلية على التعبير من خلال ذلك الأسلوب الساخر عن خواطرهم ومشاعرهم وهم أرباب اللغة وفرسانها والذين كانوا يملكون ناصية التعبير بها . ويصرفون أمورها باقتدار حيث شاءوا ، ويتفننون فى ابتكار أساليبها المؤثرة ، وسهامها النافذة التى لم تكن تقل أثراً عن ضربات السيوف وطعنات الرماح ورميات السهام .

لقد عرف العرب منذ أقدم العهود كيف يتصرف فى اللغة وكيف يصوغ عباراتها وأدوات التعبير بها ليبلغ من ورائها ما يريد فلا غرو أن اشتهروا باللسن وعرفوا بالفصاحة وتباهوا بحسن البيان ، وافتخروا بإفحام الخصوم وإسكات المناوئين .

لقد كانت المهارة فى البيان والقدرة على التعبير سمة لازمة من سمات الزعامة والرئاسة لدى العرب ومن ثم حرصوا على تنمية مواهبهم فى هذا الميدان ، ولم يكونوا يقبلون أن يترأس عليهم من لم يتحلَّ بهذه المقدرة أو من افتقدها ، فكما

كانوا يتباهون بالأحساب والأنساب كانوا يفتخرون بحسن البيان ومصداق ذلك فى قولهم السائر الذى كانوا يرددونه عندما يقللون من شأن شخص ما ، إذ كانوا يقولون عنه أنه " لا أصل له ولا فصل " والأصل هو الحسب والنسب الذى يعتز الإنسان بالانتساب إليه والفصل هو حسن البيان وقوة الحجة .

وسأبدأ هذه الدراسة الموجزة بإيضاح مفهوم السخرية والتهكم ، وقيمتها التعبيرية وأثرها فى المتلقى ، ثم أستعرض بعد ذلك صور تلك الظاهرة وملامحها فى شعرنا العربى فى العصر الجاهلى .

معنى السخرية :

وهى " نوع من الهُزْء قوامه الامتناع عن إسباغ المعنى الواقعى أو المعنى كله على الكلمات والإيحاء عن طريق الأسلوب وإلقاء الكلام بعكس ما يقال " (١) .

وقد " برزت السخرية فى كثير من الآثار الأدبية وعنى بها عدد من كبار الكتاب والشعراء واتخذوها أسلوب فى الإبانة عن آراء أو مواقف خاصة تتناول الناس أو قضايا الحياة ، وقد يكون الجاحظ وابن الرومى من أبرز الأدباء العرب ، وأناتول فرانس وبرناردشو من أشهرهم فى الآداب الغربية . ويلاحظ أن الغرض من السخرية يكون غالباً هجاءً أو توبيخاً أو ازدراءً " (٢) .

ويقول صاحب اللسان (٣) : فى مادة سخر :

" .. سخر منه وبه أى هزىء به ... وحكى أبو زيد سخرتُ منه وسَخِرت به ،

---

(١) المعجم الأدبى جبور عبد النور مادة سخر لبنان ١٤١٣ - ١٩٩٣ .
(٢) معجم المصطلحات فى اللغة والأدب مادة سخر .
(٣) لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت مادة سخر .

وضحكت منه وضحكت به وهَزِئتُ منه وهزئتُ به ، كلٌّ يقال بغرض السخرية وفى الحديث أتسخر منى وأنا الملك – أى أتستهزىء بى – وإطلاق ظاهره على الله لا يجوز وإنما هو مجاز بمعنى أتضعنى فيما لا أراه من حقى ؟ فكأنها صورة للسخرية وقوله تعالى : { وإذا رأوا آية يستسخرون } قال ابن الرمّانى معناه يدعو بعضُهم بعضاً إلى أن يسَخْرَ كيسخرون ، ... والسخرة أى الضحكة " .

وفى أساس البلاغة يقول الزمخشرى فى مادة " سخر " [1] :

فلان سُخْرة سُخَرةً يضحك منه الناس ويضحك منهم ، وسخِرتُ منه واستسخرت واتخذوه سُخْرياً وهو مَسْخرة من المساخر ، ويقول رب مساخر يعدها الناس مفاخر .

فالسخرية التى أقصدها هنا هى : نوع من الضحك الكلامى أو التصويرى الذى يعتمد على العبارة البسيطة أو على الصورة الكلامية مع التركيز على النقاط المثيرة فيها .

والسخرية التى نتحدث عنها هى الضحك فى هزل أو غير هزل لأنها كثيراً ما توحى بالجدية رغم ظاهرها الضاحك فتوجه اهتمامها إلى عيب ما . تجسم هذا العيب وتبالغ فيه وتسعى إلى إبرازه بوسائل عديدة .

وقد عدت السخرية عنصر من عناصر الهجاء وذهب إلى هذا صاحب الوساطة حيث قال :

" أن أبلغ الهجاء ما جرى مجرى الهزل والتهافت وما اعترض بين التصريح والتلميح والتعريض وما قربت معانيه وسهل حفظه وأسرع علوقه بالقلب " [2] .

(١) أساس البلاغة للزمخشرى دار صادر بيروت الطبعة الأولى ١٤١٢هـ-١٩٩٢م مادة سخر .
(٢) الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلى البجاوى .

والسخرية كفكاهة تعتبر من أرقى أنواع الفكاهة لأنها تحتاج إلى قدر كبير من الذكاء والخفاء والمكر .

والسخرية وهى تعنى الضحك والاستهزاء تنال من الشخص الموجهة إليه بطريقة ذكية طريفة . فإذا صبغت السخرية مع ذلك فى عبارة سهلة وألفاظ مرحة جميلة أعانت على حفظها وإشاعتها وانتشارها بين الناس .

والساخر ليس وصافاً ينقل العالم الخارجى فى مهارة وإتقان أو مصوراً يحمل فى يده آلة تصوير تلتقط الصور بدقة ولا إضافات ولكن الساخر الأديب فنان ذو خيال خلاق مبدع تتراءى أمامه الأشياء فيحاول أن يصورها ولا ينقل صورها كما هى فى الواقع ولكنه يطوعها لموهبته ويحتال عليها بوسائل كثيرة فيحورها أو يشخصها ويضيف إليها صور جديدة فتصير أقرب إلى الصورة الهزلية الساخرة التى تبعث على الضحك ولكنها فى الوقت نفسه تثير الاشمئزاز والنفور ولا تدعو هذه الصورة إلى إجهاد الفكر فى معرفة المراد منها لأن السخرية فى حد ذاتها كما اتضحت لى من قرأتى تعتمد فى تأثيرها على الوضوح الخلاب الذى يضحك القارىء أول ما يقرأه فهى كالنكتة إذا لم تفهم إلا بعد تفكير يذهب بريقها ويضعف تأثيرها .

وأعتقد أن الساخر فنان ذا طبيعة خاصة فهو يشبه الممثل الذى يقف على خشبة المسرح ليضحك الناس ، والإضحاك ولاشك مهمة شاقة وموهبة لا تتأتى لكل إنسان وكذلك الأديب الساخر فهو فن عسير ليس بمقدور أى شاعر أن يطرقه إلا إذا رزق قدرة خاصة ، وعيناً لاقطة ، وخيالاً نافذاً .

ويرى ابن رشيق " أن السخرية أفضل أنواع الهجاء لشدة تعلق النفس بها

فيقول فى ذلك : " وأنا أرى أن التعريض أهجى من التصريح لاتساع الظن فى التعريض وشدة تعلق النفس به والبحث عن معرفته وطلب حقيقته " (١) .

بين التهكم والسخرية :

وإذا كانت السخرية هى الاستهزاء المثير للضحك فإن التهكم هو الاستهزاء كما ذكر صاحب اللسان حيث قال :

" والمتهكم هو المتفحّم على ما لا يعنيه الذى يتعرض للناس بشره وأنشد :

تهكم حرب على جارنا ... وألقى عليه له كَلْكَلاً

وذكر من معانى التهكم والاستهزاء فقال : " والتهكم الاستهزاء وفى حديث أسامة فخرجت فى أثر رجل منهم جعل يتهكم بى أى يستهزىء ويستخف " (٢) .

والزمخشرى ذكر أيضاً أن معنى التهكم الاستهزاء فى قوله :

" تهكم به أى تهزأ به " (٣) .

وعلى ذلك فإن السخرية هى الاستهزاء تقول سخر منه أى استهزىء به وفلان سخرة أى يضحك منه الناس .

والسخرية التى أرمى إليها قد تهدف إلى التقويم وقد تهدف إلى المدح والدعابة وقد تهدف إلى تنبيه الآخرين على ما فى هذا الشخص من نقص .

وقد قال المازنى فى السخرية التى تهدف إلى التقويم : " نحن متفقان فيما أظن على أن السخر على العموم مقابلة الواقع باعتبار ما فيه من النقص بصورة

---

(١) العمدة لابن رشيق القيروانى جـ٢ ص ٣٨٢ .
(٢) لسان العرب لابن منظور مادة هكم المجلد الثانى عشر ص ٦١٧ دار صادر بيروت .
(٣) أساس البلاغة للزمخشرى ص ٧٠٤ دار صادر بيروت طبعة أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م مادة هكم .

الكمال باعتبارها أسمى الحالات التى ينبغى أن يكون عليها الواقع وكثيراً ما تكون صورة هذا الكمال غامضة ملتاعة ، بل لعلها تعدو هذا الغموض أبداً ولا تخلص من ظلامه قط إلى نور الوضوح والبيان ، وعلى أنه يكفى الإحساس العام . ولما كان المرء قلما يتهيأ له أو لا يتهيأ له قط أن يتمثل صورة الكمال واضحة مشرقة فأكثر ما يسعه أن يلفتنا إليها ويوقظ فى نفوسنا مثل إحساسه العام بها وهذا ما ينبغى أن يجعله وكده أى ينبه فينا هذا الإحساس الذى لا يستطيع أن يصوره على وجه الدقة " (١) .

والسخرية التى تصدر عن نفس ناقدة تجاوزت مرحلة الغضب ودخلت فى مرحلة التفكير الذى يأتى بعد التأمل من أجل التقويم والإصلاح .

والحقيقة أننى عندما بحثت عن معنى السخرية فلم أعثر على معنى محدد لأننى وجدتها مدمجة مع الهجاء ولا يكاد يتحدث عنها الباحثون إلا باعتبارها سمة من سمات الأسلوب الذى يتميز به أديب ما كاتباً كان أم شاعراً .

فالتهكم والسخرية يتفقان فى المعنى وهو الاستهزاء والاستخفاف ويتفقان فى الغرض وهو تقويم السلوك الإنسانى عن طريق الاستهزاء من صفة ما بتوجيه النقد لهما سواء أكان هذا موجهاً إلى ظاهرة اجتماعية أو خلقية أو سلوكية بغرض تقويمها وإصلاحها وقد يكون بغرض الدعابة أو بغرض الانتقاص من قدر المتهكم به أو بغرض تنبيه الأخرين على ما يعترى هذا الإنسان من نقص خُلقى أو جسدى .

وقد نبه الأستاذ المازنى على أن السخرية قد تهدف إلى الفكاهة والدعابة فقال :

(١) حصاد الهشيم لعبد القادر المازنى ص ٢٠٣ طبعة الشعب ١٩٦٩م .

" هى ذلك الكلام الذى يثير الضحك من أجل التسلى على أن تكون الفكاهة عنصراً بارزاً والكلام مفرغاً فى قالب أدبى " (١) .

دور التهكم والسخرية فى الإصلاح والتقويم :

والتهكم والسخرية قد يكون لهما دور بارز فى الإصلاح والتقويم ولعل دورهما يكون أكثر فاعلية من اللوم والتوبيخ لأن هذا اللون يشعر بالإهانة التى يتجاوزها التهكم والسخرية بما يشيعا من مرح وضحك وإن كان ضحك كالبكاء إلا أنه غير مستقبح ولا مرذول مما يهين المسخور منه أو المتهكم به .

وقد قال المازنى فى ذلك :

" ومن الواضح أن التهكم بهذه الصورة أخف من التأنيب واللوم والتقريع وإن كان أفعل فى تحقيق الغرض الإنسانى منها لأن هذه الأخيرة تشعر بالإهانة التى يتجاوزها التهكم بطابعه المرح الإنسيابى الخفيف حتى وإن بدا فى بعض الأحيان قاسياً بمرحه ، وبما يثيره من الضحك غالباً يخفف من أثر الشعور بالقسوة على نفس المتلقى وهو ما يقصد إليه الأسلوب الساخر عادة ويتميز به " (٢) .

وبذلك نرى أن التهكم والسخرية لهما سمة أسلوبية خاصة وهى التقويم والإصلاح وإلى هذا ذهب أستاذى الدكتور أحمد عبيد فى قوله :

" تتفوق السخرية والتهكم فى مجال الإصلاح والانتقاد على اللوم الصريح والتعنيف المعلن ، ولا تعريها كل التعرية وكذلك التهكم ومن ثم يختلف وقعهما عن

---

(١) نفسه " بتصرف " ص ٣٠١ وما بعدها .
(٢) السخرية فى أدب المازنى ص ٢٢ .

وقع النقد الصريح الذى قد يبلغ فى بعض الأحيان درجة التجريح أو الهجاء المرذول " [1] .

ويتحقق التقويم عن طريق عقد الساخر مقارنة بين الواقع المثال وبين ما يكون عليه المسخور منه من نقص فى صفة من الصفات ومن هنا تتحقق المقارنة وتتطلع النفس المنقودة إلى السمو الأخلاقى .

السخرية فى الدراسات الأدبية القديمة وفى القرآن الكريم :

والسخرية موجودة منذ القدم بدءاً بالعصر الجاهلى وما يليه من عصور ومن يقرأ الأدب العربى يجد ألواناً كثيرة من الأدب الساخر وقد حفلت كتب الأدب بكثير من النصوص الساخرة وفى مقدمة هذه الكتب البخلاء والحيوان للجاحظ " والتى حرص فيها الجاحظ كما حرص فى كثير من مؤلفاته على إيراد النوادر والطرائف التى يمتع بها قراءه ويدخل السرور على نفوسهم ويبعث النشاط فى قواهم والملاحظ أنه اهتم بذلك المنهج بخاصة فى البيان والتبيين والحيوان وهما المؤلفان الكبيران اللذان عالج فى كل منهما مسائل أدبية وعلمية وتاريخية على قدر كبير من الأهمية وعلى مستوى رفيع من التحليل والتعمق والاستقصاء " [2] .

وكذلك كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة والامتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ونهاية الأرب للنويرى والعقد الفريد لابن عبد ربه " بالإضافة إلى كتب كانت موضوعاتها الأساسية هى الأدب الساخر ومن ذلك الكتب " الفاشوس فى حكم قراقوش للأسعد بن مماتى . والقسم الثانى من كتاب نزهة النفوس ومضحك العبوس لابن سودون البشبغاوى وكذلك كتاب " الموشى لمحمد بن أحمد الوشاء " .

---

(١) أدب الفكاهة عند الجاحظ للدكتور أحمد عبيد ص ١٠٧ الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .
(٢) نفسه ص ١٦ .

والأدب الساخر فى هذه الكتب وفى كل عصر قيلت فيه تناولت كل سلوك سلبى فى المجتمع العربى بعرض واقعه المثالى فتناول صفات أخلاقية منبوذة كالبخل والجهل والجبن والغباء والجور وغير ذلك من الصفات المنبوذة فى المجتمع العربى . والجدير بالذكر فى هذا أن الفن الساخر قد انتعش حتى فى عصر الركود الأدبى وهو عصر المماليك لأنها تعد وسيلة للإضحاك فى هذا الوقت الذى كان الناس فيه فى أمس الحاجة إلى هذا اللون الساخر ويحضرنى من الشعراء الساخرين فى هذا العصر " أبو الحسن على نور الدين بن سودون البشبغاوى[1] . وهذا اللون حفلت به الكتب العربية لأن اللغة العربية بأساليبها المختلفة مجال واسع للتهكم والسخرية وعلى سبيل المثال فالكتابات بأشكالها وأنماطها وتعريفها وتلميحها تعد نبعاً فياضاً لهذا اللون الساخر الذى يشيع فى أدبنا العربى شعراً ونثراً .

والجدير بالذكر فى ذلك أن الفن الساخر نجده فى الآداب القديمة كالأدب اليونانى والأدب الهندى والفارسى أما فى الأدبين الفارسى والهندى فنجد ذلك فى كتاب " كليلة ودمنة " الذى هو هندى فارسى عربى هندى باعتبار مؤلفه الفيلسوف الهندى بيدبا ثم ترجم من الهندية إلى الفارسية وترجم بعد ذلك من الفارسية إلى العربية وضاعت النسخ الهندية والفارسية وبقيت النسخة العربية وأصبحت هى النسخة الأصلية .

والذى يهمنا فى هذا البحث أن هذا الكتاب قد حفل بألوان من الفن الساخر الذى يتخذ فيه مؤلفه الحيوان أداة للسخرية من بعض الشخصيات البارزة فى ذلك الوقت فيتهكم من هذه الشخصيات على ألسنة الحيوانات وكأنه بذلك يرسم صور

(١) نزهة النفوس ومضحك العبوس لـ على بن سودون البشبغاوى ص ٦٣

مضحكة مستخفاً مستهزءاً بهم وصار على نمط " بيدبا " المؤلف المصرى " محمد عثمان جلال " فى كتابه العيون اليواقظ فى الأمثال والمواعظ ومن الذين أبدعوا على منوال ذلك الشاعر المصرى الحديث أحمد شوقى الذى مارس هذا اللون باقتدار عجيب وإبداع فريد .

وفى الأدب اليونانى نجد أرسطو يقدم الفن الساخر وقد أشار إلى ذلك الدكتور محمد غنيمى هلال حيث قال :

" فلقد كانت لغة المؤلفين فى الملهاة القديمة - لعهد أرسطو لغة مقذعة وكانت مبعث السرور ... ، وفى الملهاة الحديثة لعهد أرسطو - كان التلميحات والإيعازات أكثر إبهاجاً ، فأرسطو يفضل السخرية التى يرمى قائلها لمعنى عام " (١) .

تأثر الفرس بالأسلوب الساخر فى القرآن الكريم :

والجدير بالذكر فى ذلك أن ألفاظ القرآن الكريم والأسلوب الساخر فيه أول ما اتجهت إليه أنظار أدباء الفرس من ذلك مثلا قول الشاعر الفارسى :

جه شو دكر نشيند أهـل أدب　　زيردست كسى كه بى أدب أست (٢)

قل " هو الله " با جينين عظمت　　زير " تبت يد أبى لهب " أست

ومعناه : لا عجب إذا رأيت أهل الأدب قد تقدمهن من لا أدب لهم لأن " قل هو الله " مع ما لها من عظمة جاءت بعد " تبت يدا أبى لهب " ومن الأسلوب الساخر فى القرآن الكريم وتأثر به الأديب الفارسى " سعد الشيرازى " قول الله عز وجل فى السخرية ممن يرفع صوته " إن أنكر الأصوات لصوت الحمير " فيأخذ سعد الشيرازى هذا المعنى فى السخرية من خطيب كريه الصوت فيقول :

---

(١) قضايا معاصرة فى الأدب والنقد للدكتور محمد غنيمى هلال ص ١١٠ طبعة نهضة مصر .
(٢) الأدب المقارن لطه ندا ص ١٢٧ طبعة دار المعرفة الجامعية ١٩٩٥ .

جو دوخ له سيرش كنندار وقيد دكر بانكب دار دكه هل من مزيد [1]

والسخرية موجودة منذ قديم الأزل ونجدها فى القرآن الكريم ولنتأمل السخرية الموجهة إلى أبى لهب وزوجته فى قوله تعالى { تبت يدا أبى لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد } [2] فنجده يسخر من أبى لهب وزوجته والسخرية هنا صادقة كما وردت فى كتب التفاسير فى أن أبا جهل شتم محمداً حين صعد إلى الصف ونادى على الناس وأخبرهم أنه نذير لهم من عذاب شديد فقال أبو لهب : تبًّا لك ألهذا جمعتنا ! فنزلت هذه الآيات ولنتأمل هذه السخرية فى بداية السورة " تبت يدا أبى لهب وتب " فهى استحضار للصورة كأنها ماثلة أمام أعيننا ففيها خزى لأبى لهب ورد لاعتبار سيد الخلق أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم . فنجد السخرية التى تثير الضحك والاستهزاء من أبى لهب وزوجته التى يظهرها القرآن الكريم فى صورة مهينة وسخرية فذة لأن هذه الآيات كما قال القرطبى : " تخزى أبا لهب وزوجه أكثر من الداهية ولا يقتل الرجل السيد مثل الضحك منه والسخرية به لأنه ما يرجو من وراء أفعاله غير التقدير وهذا المغزى قد أدركه أبا لهب وزوجه فقد أدركت " أم جميل " زوجة أبى لهب دلالة هذه الآيات ورأتها هجواً محضاً وحملت معها حجراً لترمى محمد وتشفى غليلها بل أنها أنشأت فيه شعراً تهجوه به فقالت :

مذمما عصينا [1]

وأمره أبينا

ودينه قلينا

---

(١) نفسه ص ١٢٨ .

(٢) سورة المسد " قرآن كريم "

(٣) الهجاء الجاهلى صوره وأساليبه الفنية للدكتور عباس عجلان ص ٢٢٧ .

وهكذا نجد السخرية كثيرة فى القرآن الكريم ولنذكر كيف كانت السخرية فى قصة قابيل وهابيل الذى عجز عن أن يوارى سوأة أخيه فبعث الله غراباً يبحث فى الأرض ليواريه كيف يوارى سوأة أخيه فإرساله تعالى الغراب وهو أضعف الحيوانات ليريه كيف يوارى سوأة أخيه فيها استهزاء وتهكم وسخرية وشدة وقع وإيلام . وكذلك ذكر القرآن الكريم للسخرية الواردة على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام من الآلهة حينما رد عليهم قائلاً بل فعله كبيرهم هذا . لاشك أن الرد فيه استهزاء وسخرية من أكبر آلهتهم فما بال السامع من دونها ؟ استهزاء وسخرية يوحى بهما الرد الذى رده إبراهيم عليه السلام على الكفار عبدة الأوثان والأصنام .

ومن الآيات القرآنية الساخرة قوله تعالى فى سورة القلم ﴿ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز ، مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم أن كان ذا مال وبنين إذ تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ، سنسمه على الخرطوم ﴾[1] فنجد السخرية ما بين كلمات وألفاظ الآيات واضحة وقد اختلف أصحاب التفاسير فى الشخصية الموجهة إليها السخرية فقالوا أنه الوليد بن المغيرة ، وقالوا الأسود بن عبد يغوث وقالوا الأخنس بن شريف " .

وأيا كانت الشخصية الموجهة إليها السخرية فإن الآيات أضفت عليها صفات من شأنها أن توصم صاحبها بالخزى والعار الدائم وتسلب عنه أى صفات حميدة .

ونلاحظ أن الآيات الكريمة بدأت بكلمة " لا تطع " لأن ذكره الصفات بعد ذلك

---

(١) سورة القلم " قرآن كريم " .

قد تغرى السامعين لهذه الشخصية بإتباعها وقد وصمه القرآن بتسع صفات تردىء من تخلق بها ، ولا تقيم له قائمة بين العرب فهذا الرجل كثير الحلف ومن كثر حلفه قل صدقه لأنه يخفى كذبه بهذا الحلف فيتوهم بكثرة حلفه أن يكون فى موضع ثقة من الآخرين وقد يخطر على الإنسان أن لا يطع أى إنسان يحلف فجاءت اللقطة التالية لتوحى بالمهانة للذى يحلف كذباً - ثم تعرج الآيات على صفتين من صفاته " همـاز " " مشـاء بنميم " ؛ " والهمـاز الذى يهمز الناس بيده ويضربهم واللماز باللسان [1] كل هذه صفات تسخر الآيات فيها من الشخص الموجهة إليه ولا يكتفى القرآن الكريم بذلك بل تتعدى السخرية إلى رميه أنه لا أب له فى قوله تعالى " بعد ذلك زنيم " وهو بذلك لا يستحق السيادة فما الذى يدفعه إلى إبداء الرأى أو الخوض فيه فقال " أساطير الأولين " .

وهنا يكشف القرآن الكريم عن ذلك السر إذ لولا هذا فلربما انخدع بعض الناس فى عظمة القائل ، وبنوا عليه رأياً وحكماً ، فما دفعه غير ماله وبنيه وهما ليسا من جده ، وإنما رزقهما ، وكان حرياً به أن يتيه بخلقه الخاص ، ولكن من أين له ؟ ... وقد فضح القرآن شمائله وعراه . فالذى دفعه إلى القول بأن القرآن أساطير الأولين ، كان جديراً به أن يردعه وهذه سخرية بالغة " [2] .

وقد انتهت الآيات الكريمة بأسلوب ساخر لاذع فى قوله تعالى " سنسمه على الخرطوم " وهو بذلك يسخر منه القرآن حيث سيجعل له علامة مميزة فى أنفه لتكون له مهانة لازمة مستمرة معه ما بقى ولا يفارقه خزيه وعاره .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ص ٦٧١ طبعة دار الشعب القاهرة .
(٢) الهجاء الجاهلى صورة وأساليبه الفنية ص ٢٢٣ للدكتور عباس عجلان .

لاشك أن هذه سخرية بالغة جمعت صفات متعاقبة توحى بالنقص فى قدر المتصف بها وتسخر منه سخرية لاذعة فهذه سخرية بالغة ليس فى الألفاظ بل السخرية تنبع بين الحروف التى تتكون منها الألفاظ فترديد الميم تسع مرات ، واللام سبع مرات والعين خمساً وحروف الحلق إحدى عشرة ، مع اختيار صيغ المبالغة ولاسيما " فعال وفعيل ، ولم يأت اسم الفاعل إلا فى معتد كل ذلك كان أبلغ فى السخرية .

ويقول الدكتور عجلان فى ذلك :

" فهذه الصفات المتوالية والمركزة تجمع كل النقائض ولا تدع عيباً واجتماعها فى فرد واحد نادر ولم أقف على شعر جاهلى جمع كل هذه الخلال فى مجهول واحد " (١) .

وبهذا تكون السخرية موجودة فى القرآن الكريم وإن إختلفت عن السخرية البشرية لأنها فى قمة الاعجاز حيث أنها لا تنبع بين الألفاظ فقط بل بين الحروف التى تكون أشد وقعاً وسخرية من الشخص الموجهة إليه .

---

(١) الهجاء الجاهلى صوره وأساليبه الفنية ص ٢٢٣ للدكتور عباس بيومى عجلان طبعة دار المعارف ١٩٨٢م .

العوامل والدوافع الباعثة على إزدهار الفن الساخر فى العصر الجاهلى :

وإذا كنا نتحدث عن السخرية كفن فى هذا العصر فإن الحديث يقودنا إلى بيان أهم العوامل والدوافع الباعثة على ظهور هذا الفن .

ومن قراءتى للشعر الساخر فى العصر الجاهلى رأيت أن ظهور هذا الفن يرجع إلى عاملين هما :

(١) العداوة والمنافسة بين أبناء القبيلة الواحدة .

(٢) طبيعة الحياة والصراع لامتلاك مقوماتها .

فالمعروف أن المجتمع الجاهلى يضم بيئات متعددة فنجد العربى قد يقيم بالبادية وقد يقيم بالواحة أو القرية زمناً والشائع فى المجتمع القبلى أن العلاقة بين أبناء القبيلة الواحدة تقوم على الوفاق غالباً ولقد كثرت العصبيات القبلية فى البيئة الجاهلية نظراً لعدم الاستقرار الاجتماعى .

ومن قراءتى للشعر الجاهلى الساخر اتضح لى أن حياتهم القائمة على الصراع والنزاع سواء كان هذا الصراع لغرض سياسى أو إجتماعى هى الدافع الأساسى وراء ظهور هذا الفن الساخر الذى أصبح أداة من أدوات الدفاع عن القيم ونقداً لاذعاً للصفات المنافية لها وقد يحتدم الصراع بين أبناء القبيلة الواحدة .

كما رأينا بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة وإذا كانت العلاقة مهتزة بين أبناء القبيلة الواحدة فنجد فى الشعر الجاهلى أيضا عديداً من النزعات بين أبناء العمومة مثلما سخر الشميذر الحارثى من أبناء عمومتهم بسبب أنهم اعتدوا عليه

فأخذ يسخر منهم طالباً أن لا يتحدثوا عن أخلاقهم الفاضلة ثم يذكرهم بمخازيهم وعيوبهم ومن ذلك قوله :

بنى عمنا لا تذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا [1]

إلخ الأبيات التى تكشف عن العلاقة الداخلية بين أبناء العمومة ولكنه يفيض باطنه غيظاً وحقداً فيقدمه " سويد بن أبى كاهل " فى قصيدته التى فيها يقول :

رب من أنضجت غيظاً قلبه قد تمنى لى موتاً لم يطعْ [2]

وهكذا كانت الحياة العربية وما فيها من صراعات داخلية بين أبناء القبيلة الواحدة وصراعات خارجية بين القبائل وتعصبات قبلية دافعاً هاماً من دوافع إبراز فن السخرية .

والعامل الثانى الذى كان يبعث على السخرية هو :

طبيعة الحياة القبلية والصراع لامتلاك مقوماتها .

ولا أقصد بذلك أن السخرية موجهة إلى النظام الإجتماعى بما فيه من قبلى وسياسى ودينى بل أننى يكاد يتبين لى أن السخرية كلها ترجع إلى طبيعة الحياة الإجتماعية فقد كانت بحق سجلاً ذاخراً لذكر كثير من المعايب الخلقية والجسدية .

وقد تتلاقى موضوعات السخرية فى الدعوة إلى الآداب العامة المرتبطة بالإنسان وعلاقته الحميمة فى حياته الإجتماعية إما بهدف التقويم والإصلاح أو الفكاهة والدعابة أو إظهار صفات النقص فى الشخصية الموجهة إليها السخرية .

---

(١) الحماسة لأبى تمام الطائى جـ١ ص ١٢٤ شرح المرزوقى نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون طبعة ١٩٥٢م – القاهرة .
(٢) المفضليات ص ١٩٨ .

ومن هنا نتعرف على موضوعات السخرية التى تطرق إليها الشعراء وهى غالباً موجهة إلى سببين هما :

(١) السخرية من الشخص المنتقد وذلك بتلمس العيوب الظاهرة فيه أى العيوب الجسدية والعيوب الخلقية .

وأعتقد أن السخرية الموجهة بالنقد إلى الشخص هى أصل السخرية ومنه تخرج الموضوعات الأخرى لأن الإنسان فى علاقته اليومية يلتقى بأشخاص قد تثور روح المنافسة والقتال ولاشك أن هذا يورث العداوة التى هى الدافع الأصلى وراء فن السخرية :

والسخرية الشخصية نوعان :

(١) ذكر العيوب الخلقية أو ما يتصل بها .

(٢) ذكر العيوب الجسدية .

والنوع الثانى : السخرية من الشىء المنتقد .

وهذا النوع يوجه إلى قبيلة ما وطبيعة الحياة الجاهلية تساعد على ذلك إذ أن كل قبيلة تعد دولة بعينها لها حاكمها ولها شئونها السياسية المستقلة .

والسخرية القبلية ربما ترجع إلى عدة عوامل منها :

(١) التباغض والكراهية والحقد والعداوة ولعل هذا السبب يرجع إلى القبائل وتعدادها وعداوتهم بعضهم بعض وهنا يؤدى الشعر الساخر دوره حيث يسفه أعداءهم ويسلبهم مكارم الأخلاق فيكون الشعر الساخر فى ذلك كالسلاح الذى يدافع به الساخر عن قبيلته .

(٢) الحسد ويعتبر الحسد من أهم العوامل التى تساعد على انتشار فن السخرية فالتحاسد بين القبائل كان يأتى بسبب الحقد التى تظهره قبيلة على أخرى لكثرة أعدادها أو كثرة فرسانها أو وفرة عيشها وقد " يكون الحسد بين الأقارب أشد وقعاً وعداوتهم تكون على قدر حسدهم " [١] .

٣ - موقع القبيلة فى الجاهلية الذى جعلها تجنح إلى السلم ونبذ العداوة وهذا جعلها فى موضع سخرية واستهزاء من الآخرين .

فيقال أن قبيلة باهله مغلوبة على أمرها لا تقوى على رد عدوان لذلك كانت من القبائل التى أصبحت مثلاً للسخرية فقد قال فيها الشاعر :

ولو قيل للكلب يا باهلى عوى الكلب من سوء ذاك النسب [٢]

والجدير بالذكر فى ذلك أن قبيلة " باهلة " هذه كانت تعرف بالفضل وبكثرة خيراتها فالقبائل الخاملة سلمت من السخرية لأن السخرية إنما توجه إلى القبائل ذات الشأن والتفوق بين القبائل .

فالسخرية تدل على منزلة إجتماعية ومكانة تثير الحاسد الساخر فينطلق لقول شعر السخرية .

وسنعرض بإذن الله تعالى نماذج لهذه الموضوعات كل على حدة .

ولنبدأ بالسخرية الموجهة إلى الشىء المنتقد .

(١) الغضب هو الدافع الأساسى وراء السخرية من الشىء المنتقد فيلجأ الساخر إلى ذكر المعايب والمخازى .

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ٢ ص ٩٤ تحقيق عبد السلام هارون طبعة القاهرة .
(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى جـ٣ ص ٢٧٩ دار الكتب المصرية .

ويتضح ذلك فى القصيدة الساخرة التى قالها " الحارث بن حلزة " وقد تملكه الغضب من سلوك خصومه فشرع يسرد بعض مخازيهم تعييراً لهم وتحقيراً لشأنهم بأسلوب استفهام يفيض بالاستهزاء والاستخفاف والسخرية .

قائلاً :

إن كانت كنده قد غزت تغلب وقتلت منهم وأخذت الغنائم فهل يغنمون هم وندفع نحن الجزاء ؟!

وهل علينا فى العهود التى بيننا أن تأخذونا بذنوب بنى حنيفة وما فعلت بكم لصوص بنى محارب ؟ هل علينا جنايات بنى عتيق وإنا لنبرأ من كل غادر ، هل علينا جريمة العباد فنحمل نحن الأعباء وهل علينا إثم ما فعلت بكم قضاعة ؟ وهل علينا ذنب إيادكما أخذ طسم بذنب أخيه جديس ؟

ويستمر الحارث فى أسلوبه الساخر لبنى تغلب فيذكر أسماء أشخاص من التغلبيين ضربوا بالسيف ولم يؤخذ بثأرهم ، وقال لهم : إن سلوكهم نحو قومى فيه تعنت ظاهرى ورمى بالتهم بدون حق ووضع الأمور فى غير موضعها الصحيح ، وعيرهم بما حدث من تميم نحوهم حيث جاء ثمانون من " تميم " وقتلوا من بنى رزاخ التغلبيين ، وأخذوا أموالاً كثيرة فحاول هؤلاء استرجاع ما أخذ فلم يفلحوا فى شىء فرجعوا أذلاء خائبين والغل يأكل صدورهم ولكن الغل لا يبرده الماء وذلك فى قوله :

ليس منا المضـربون ولا قـيـ ـس ولا جندل ولا الحـداء [1]

عننا باطلاً وظلماً كـمـا تعـ ـتر عن حجرة الرُّبيض الظباء

(١) شرح المعلقات العشر للتبريزى ص ٤٨٧ .

وثمـــانون من تميم بأيديـ هم رماح صدورهن القضاء

لم يخلو بنى رزاح ببـرقـا ء نطاع لهم عليـهم دعـاء

تتـركـوهم ملحـبين وأبوا بنهـاب يصم منه الحـداء

ثم جاءوا يسترجعون فلم تر جع لهم شـامـة ولا زهراء

ثم فاءوا منهم بقاصمه الظهـ ر ولا يبـرد الغليل الماء

ثم خيل من بعد مع الغـلاّ ق لا رأفـة ولا إبقـاء

من أصابوا من تغلبى فمطلو ل عليـه إذ تولى العـفـاء

ثم يقول الحارث إن هذا حدث من " عمرو بن هند " مع التغلبيين حينما حاولوا عصيانه بعد أن قتل عمرو ملك الغسانين وأخذ بنته ميسون فى قبه لها وتجمع تحت رايته جموع كثيرة فقال التغلبيون : من عمرو ومن معه إنما معه قراضبة " صعاليك ، فقراء ، لصوص " قد جمعوا له من كل مكان لقتالنا ، فليتنا قد لقيناهم ، فيعلم عمرو غداً كيف نحن وهو .

ثم يستمر الحارث فقال للتغلبيين على سبيل التهكم والسخرية :

لمَ يغُروكـم غروراً ولكن يَرفعُ الآل جُمْعَهُم والضُّحاء

فهو يتهكم تهكم فيه سخرية فيقول لهم فتحققت أمنيتكم التى كلها بطر وما أتوكم على غرة ، لكن ظاهرين ، حين ارتفع النهار . وانتشر السراب فكان ما حاق بكم من قتل وسبى . استخفاف بهم حيث يجعل تحقق النصر عليهم عن مقدرة فائقة من جانب المنتصر وضعف وهوان متعمق لدى المهزوم فيتحقق النصر عليهم فى وضح النهار دون أن يلاقيهم عدوهم على غرة وفجأة حتى يبرروا لسائر الناس سبب ما حاق بهم من خزى وعار .

ومن أمثلة هذه اللغة الساخرة :

(٢) السخرية ممن يسعون للحرب والدمار .

سخرية زهير بن أبى سلمى من الحرب ونتائجها وهو يوجه الكلام فيها إلى الأحلاف المتحاربين وينهاهم عن الحرب لأنها لن تخلف عليهم إلا المحن والمصائب والآلام وذلك فى قوله :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم[1]

متى تبعثوها تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا أضريتموها فتضرم

فتعرككم عرك الرحى بثقالها ... وتلقح كشافاً ثم تنتج فتئتم

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم ... كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

فتغل لكم ما لا تغل لأهلها ... قرى بالعراق من قفيز ودرهم[2]

فيصور الحرب بصورة ساخرة مخيفة قبيحة صورة أسد ضار وصورة نار مشتعلة تارة ثانية وصورة رحى تطحن الناس تارة ثالثة وصورة ناقة تلد ، تارة رابعة ولكنها لا تلد إلا نتاجاً مشؤماً إن الحرب تبعث مذمومة ويتفاقم خطرها بمجرد حدوثها فتزداد تضرماً واشتعالاً فتكون بمثابة الرحى التى تطحن الحبوب .

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبى سلمى للإمام أبى العباس أحمد بن يحيى نسخة مصورة من طبعة دار الكتب ١٣٦٣هـ - ١٩٨٤م الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٣٨٤ - ١٩٦٤م ص ١٨ ، ١٩ .
المرجم أى المظنون ، تبعثوها أن تهيجوها ، تضر من ضرى الأسد إذ تهيأ للفرسية وأضرى أى درب وعود ، تضرم أى تشتعل .

(٢) تعرككم أى تطحنكم ، الثفال أى جلد يجعل تحت الرحى أى تطحن ، تلقح كشافاً أى تحمل كل عام وذلك أردأ النتاج ، تتئم أى تلد توأماً ، أشأم أى مشئوم .
أحمر عاد أراد أحمر ثمود ، قدار هو عاقر ناقة سيدنا صالح ، القفيز : أى المكيال فى العراق

ويسخر ويتهكم ويستهزىء بهؤلاء الذين يرون فى الحرب نفعاً فيقول لهم نعم إن حربكم تلقح كشافاً ، فما أشبهها بناقة تحمل بمجرد أن تلد ثم أنها لا تلد واحداً ولكن توأم وهذا أضعف المواليد بالإضافة إلى كونه كالغلمان الشؤم واحد منهم يقضى على قبيلة بأكملها لشؤمه كما قضى " قدار بن سالف " عاقر ناقة سيدنا صالح وعندما عقر ناقة قومه " ثمود " انتقم الله منهم جميعاً " فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها " فإذا كان واحد منهم مثل هذا الذى قضى على قومه كلهم فكيف يكون مدى الخطر إذا كان لديهم غلمان شؤم كلهم ؟ " .

ومن قبيل السخرية بالشىء المنتقد :

٣ - السخرية عن طريق التعريض بالصفات السلبية فى المجتمع القبلى :

ومن ذلك سخرية حسان من قبيلة مذحج :

بنى اللؤم بيتاً على مَذْحِجٍ فكان على مَذْحج تُرْتُبًا (١)

ولقد جمعت ما حوت مَذْحج من المجد ما أثقل الأرنبا

فنجد السخرية موجهة إلى قبيلة " مذحج " ويستهزىء بها حيث يرميها بخسة الطبع ويجعل الخسة متأصلة فيهم وذلك برسم هذه الصورة المبتكرة فيجعل اللؤم وهو دناءة الطبع بيتاً ثم يظهر الحيرة والتردد بعد ذلك فى أن يجعل أيهما فى المرتبة الأولى مذحج أم بيت اللؤم .

ولاشك أن هذه سخرية تفيض بوافر الألم والحزن فى هذه القبيلة ثم يزيد

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ١٠٠ تحقيق دكتور سيد حنفى وحسن الصيرفى الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .
ترتبا أى مقيماً لازماً ، مذحج أكمه وبطون مذحج سعد العشيرة ومداد وأود ودهاء وبنو الحارث بن كعب وكان أبوهم ولد على أكمه اسمى مذحج فسمى بها .

السخرية استخفاف واستهزاء بهؤلاء القوم حيث ينفى أن يكون لهم مآثر ومجد ويجعل ما يسجل لهم من مآثر لا يثقل الأرنب وهو أضعف الحيوانات . صورة هزلية ساخرة نلمح فيها الاستخفاف والاستهزاء بمن يتصف بصفة اللؤم .

ومن ذلك قول أحد الشعراء مستخفاً بقبيلة " باهلة " :

فما سأل الله عبداً له فخاب ولو كان من باهله [1]

وهكذا كانت السخرية والاستخفاف بهذه القبيلة لانتقاد شيء ما فيها وهو الضعف والهوان والضعة التى جعلت الساخرين يتجرأون عليها وفى ذلك يقول الجاحظ :

" والمبتلى والمحروم والمظلوم مثل باهلة وغنى مما لقيت من صوام سهام الشعراء ، وحتى كأنهم آلة لمدارج الأقدام ينكب فيها كل ساع ويعثر بها كل ماش " [2] .

ومن ذلك ما قاله " بشر بن أبى حازم الأسدى فى أوس بن حارثة الطائى والسخرية من قبائل متعددة ومن ذلك قوله [3] :

وبدلت الأباطح من نمير سنابك يستثار بها الغبار

وليس الحى حى بن كلاب بمنجيهم وإن هربوا الفرار

وقد ضمز بجرّتها سليم مخافتنا كما ضمز الحمار

وأما أشجع الخنثى فولت تيوساً بالسُّطى وهو يَعار

---

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ٣ ص ٢٧٩ دار الكتب المصرية .

(٢) الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة جـ ١ ص ٣٥٨ .

(٣) والمفضليات ص ٣٤٢ تحقيق عبد السلام هارون وأحمد محمد شاكر طبعة دار المعارف الطبعة السابعة .

الأباطح جمع أبطح وهو بطن الوادى يكون فيه الحصى الصغار .

فنجد الشاعر يرسم لوحة فنية لهذه القبائل ويستهزىء بها ويعطى هجاؤه الطابع الساخر ويميل إلى التركيز على العيوب ويجنح إلى الصور المضحكة وكأنه ينفس عن نفسه ما يشعر به من غيظ تجاه تلك القبائل فنجده فى هذه اللوحة الفنية منسجمة الخطوط والظلال وإن بدت غير مؤتلفة فالشكل العام هو التخلية والفرار من جحافل بنى أسد وهذا المعنى له وجود فى كل الصور الجزئية وإن احتفظ بخاصية فى كل منظر على حدة .

" فبنو نمير وهم جمرة من جمرات العرب اكتفى الشاعر فى هجائهم بالصورة السالبة فلم يقدم نعتاً ايجابياً ، وإنما بين أنهم تركوا مواطنهم بعد أن احتلتها " بنو أسد " .

ولكى يبقى على مظاهر العنف يدخل عناصر أساسية فى تلك الصورة فالفعل (بدل) مبنى للمجهول ، ثم يأتى بالأباطح جمعاً ويذكر البديل بمجازه (سنابك) ثم يلون الصورة بالقتامة الملائمة للحرب باستثارة الغبار وهذا أنكى لبنى نمير من النعت الإيجابى لأنهم أهل قوة وبأس ، ولا فضيلة عندهم تفوق القوة والمنعة ، فالصورة وإن كانت سلبية إلا أنها مؤلمة ، إذ تنسف ما تمتاز به " [1] .

ثم يبين هروب بنى كلاب على سبيل السخرية والاستهزاء .... فأما سليم فلم تهرب ولكنها جفلت وانهارت . ثم يصورها بصورة استهزائية ضاحكة حيث صور الحمار وهو أطبق فمه على جرته والمعروف أن الحمار لا يجتر إذ لا يستطيع أن يحرك فكيه أو يسبغ طعامه وهذه حالة الخائف الذى يدهمه ما حق فتموت الحركة عنده ، والصورة لدى الحمار وقد أطبق فاه على جرته لا يسبغها ولا يلقيها صورة فيها مرئية للحمار وساخرة للقبيلة المهجوة .

(١) الهجاء الجاهلى صوره وأساليبه الفنية سنة ١٩٨٢م دار المعارف .

والصورة لها بعدان :

بعد ظاهرى متمثل فى منظر السيلمين وقد بهتوا وعلتهم الدهشة ، وبعد داخلى ينم عن الحيرة والاضطراب ولكنه أراد بذلك أن يستهزىء ببنى سليم ويصورهم فى صورة هجائية ساخرة حيث يرميهم بالتبلد والغفلة كالحمار .

ثم نجد هذا الوصف الساخر فى هجائه " لأشجع " حيث ينفى عنهم الفضائل – فهى لم تبل بلاء الشجعان ، ولم تستسلم استسلام الجبناء فليس لهم صبغة خاصة وهذا يقربهم من " الخنثى " ذلك المخلوق الذى يحمل صفات الأنوثة والرجولة .

وهكذا كان هجاؤه ساخراً يرميهم بالخنثى أسلوب إنكارى توبيخى الغرض منه الاستهزاء والاستخفاف بهذه القبيلة .

ثم إن هذا الوصف يسلبهم الصفات الأساسية للجنسين ويرميهم بالإهانة والعار .

وقوله فى " بهر وبهم " حين تولوا أمام بنى أسد وتشبيه لهم على سبيل التهكم والسخرية بمنظر المعيز وهى تجرى فراراً على غير نظام ولا معرفة بالطريق التى تهتدى إليه .

لاشك أن هذا منظر يدل على الاستخفاف والاستهزاء بهم فيجعلهم فى فرارهم فى صورة هزلية مضحكة .

وفى (مرة) بدأ بقوله " " ولم نهلك لمرة " هذا النفى وهذه البداية تدل على استهزائه بهذه القبيلة ورميه لها بالضعف والمهانة والذل وهذا سخرية وتهكم من فعلهم .

وهكذا كانت السخرية الموجهة من " بشر بن أبى خازم " للقبائل التى فرت أمام بنى أسد هجاءاً لاذعاً .

والألفاظ التى استخدمها " بشر بن أبى خازم " ساعدته فى الأداء الفنى لتحقيق غرض السخرية والاستخفاف والاستهزاء بهم فيجعلهم فى فرارهم فى صورة هزلية مضحكة ولنتأمل حرف الجر الزائد فى خبر ليس (يمنجيهم) يؤكد المضمون - وإن هربوا ، تضيف بعدا للصورة ، كما بين الدكتور عجلان فى قوله :

" وقد قامت المساعدات اللغوية بدور إيجابى فى الأداء الفنى فحرف الجر الزائد فى خبر ليس (بمنجيهم) يؤكد المضمون - وإن هربوا تضيف بعدا للصورة ، فقد يفر الإنسان منحازاً لفئة ليس هارباً ، فليس كل فرار هروباً فيسد بهذه الجملة المعترضة منافذ الخلل الفنى ...

واستغل الشاعر الفعل (ضمر) ووظفه دلالته والضمور أن تمسك الدابة طعاماً فى فمها فلا تجتره ... ثم يفصل الشاعر بين فعلين متلازمين ويأتى بالتشبيه فى آخر البيت ... ولعل هذه هى أهم الخصائص التى تميز بشر بن أبى حازم فى هجائه هى التكامل الفنى والتواءم فى البناء الشعرى وإن اختصت كل صورة بخصائص معينة ... وفى هذا ما يدل على البراعة فى البناء الفنى وجودة التعبير عن الأفكار " [1] .

ومن السخرية بالشىء .

(٤) السخرية من حقيقة ملازمة لقبيلة ما .

---

(١) الهجاء الجاهلى صوره وأساليبه الفنية ص ١٩٢ .

ومن ذلك :

قول " سَلَمَةُ بنُ الخَرْشب الغطفانى " (١) .

يقول فى السخرية من بنى عامر بن صعصعة رهط عَامر بن الطفيل :

إذا مـا عـدوتم عـامـدين لأرضنا (بنى عامر) فاستظهروا بالمرائر

فـإن بنـى (ذبيـان) حيث عـهدتم بجـزع البـتـيل بين بـاد وحـاضـر

يسـدون أبواب القـبـاب بضـمـر إلى عـنن مـسـتـوثقـات الأواصـر

نجوت بنصل السيف لا غمد فوقه وسـرج على ظهـر الرحـالة قـاتر

فـأثن عليـهـا بالذى هـى أهله ولا تكفـرنهـا ، لا فـلاح لكافـر

فنجد السخرية هنا مؤلمة مبنية على حقيقة عرفت عندهم أن " الحكم بن الطفيل " خنق نفسه فى معركة كانت بين العامريين وبين غطفان .

وقد قال الجاحظ فى ذلك :

" ومـا أكثـر من قـتل نفسـه إمـا لخوف المثلـة ، وإمـا لخوف التـعـذيب والهوان وطول الأسر ، وقد كان الحكم بن الطفيل - أخو عامر وأصحابه - خنقوا أنفسهم " (٢) .

ومن هنا كانت البداية ساخرة مستهزأة بهم من فعلهم هذا فقال فى البداية على سبيل التهكم والسخرية - من شاء منكم يا بنى عامر أن يقصد إلينا فليأت

---

(١) المفضليات ص ٣٦ .

هو سلمة بن نصر بن حارثة بن أنمار والخرشب لقب أبيه وأصل معناه الطويل الثمين . وقيلت هذه القصيدة فى يوم الرقم من أيام العرب انتصرت فيه غطفان على بنى عامر ، رهط عامر بن الطفيل .

(٢) الحيوان ص ٢٧٢ تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة .

بحبل غليظ كى يشنق به - ومنشأ السخرية نابع من الموقف وساعد عليه (التركيب اللغوى من جملة الشرط التى توحى بالشك) وقوله (عامدين) فيه تحذير وقوله (المرائر) لفظة ساخرة حيث يوصيهم أن يأتوا بحبال جيدة لقتلهم وهكذا كانت بداية السخرية مضحكة من فعلهم مستهزأة بما يفعلونه ثم يوضح لهم بعد ذلك إن الذى هزمهم هم " بنو ذبيان " وهم كما تعلمون فى مكانهم على منحنى جبل البتيل فى نجد ما بين حاضر وباد . وقد حبسوا خيولهم بفناء بيوتهم وهذا يكشف عن قوتهم ومدى استعدادهم للحرب والإقدام عليه فى أى وقت .

ثم يتأمل قوله لعامر " نجوت بنصل السيف لا غمد فوقه ، صورة استهزائية ساخرة حتى بالذى نجا من هذه القبيلة فيقول أن السبب الأساسى فى نجاتك هو فرسك فاشكره فلولاه لما نجوت فاشكره ولا تنكر فضله عليك .

صورة تهكمية ساخرة تثير الضحك والاستهزاء بقبيلة (بنى عامر) تجاه فعلهم الذى فعلوه عندما هزموا فى أحد المعارك .

ومن هذا القبيل السخرية القائلة التى قالها " النابغة الذبيانى " فى قبيلة " عبس " قال :

جزى الله (عبساً) فى المواطن كلها جزاء الكلاب العاويات وقد فعل[1]

فهو هنا يسخر منهم بما عرف عنهم من نقص فى الفضائل الخلقية ويقول لهم : أن لهم جزاء مثل جزاء الكلاب .

لاشك أنها صورة استهزائية ساخرة من هذا الشيء الملازم لهذه القبيلة فيكون الجزاء عليه مثل جزاء أحقر الحيوانات .

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى ص ١٩١ تحقيق أبو الفضل ابراهيم دار المعارف بمصر .

ومن قبيل السخرية بالشيء المنتقد

(٥) السخرية الموجهة إلى قبيلة دميمة الخلقة والخلق .

يقول الشاعر فى ذلك :

على كل وجه (عائذى) دمامه يواقى بها الأحياء حين تقوم[1]

وأورثها شر التراث أبوهم قماءة جسم ، والرداء ذميم

كأن خروء الطير فوق رؤوسهم إذا اجتمعت قيس معاد وتميم

حتى تسأل (الضبى) عن شر قومه يقل لك أن العائذى لئيم

فهو يسخر منهم ومن عيوبهم الجسدية فيرميهم بالقبح فى تركيبهم الجسدى وفى خلقهم فالوجه عندهم دميم يثير الاشمئزاز فى نفسية أى إنسان يلتقى بهم ثم يزيد فى التهكم والسخرية بأن يجعل هذه الدمامة متأصلة فى قبيلتهم (عائذى) فأبوهم يعرف بالقماءة فى الجسم والقذارة فى الثوب ويزيد الأسلوب سخرية أن يجعل قذارتهم هى الصفة الغالبة عليهم والمميزة لهم بين القبائل فيعرفون فى أماكن اجتماع القبائل بوجود روث الطير على رؤوسهم . ثم يختم هذه السخرية اللاذعة بسخرية أشد وقعاً فى نفوسهم حيث يوضح أنه لا مفر من أن الرجل من بنى ضبه إذا سأل عن شر قومه فيشير إلى بنى عائذة لذمامتهم ولؤمهم .

صورة ساخرة يوضح من خلالها اتصاف (بنى عائذة) بالدناءة فى الأوصاف الحسية والمعنوية .

---

(١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ص ١٤٥٣ القسم الرابع نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون سنة ١٩٥٢ القاهرة

ومن قبيل السخرية من الشيء المنتقد :

(٧) السخرية عن طريق التعريض بالمدح .

وفيها يقوم الشعراء بقلب الصفات الحسنة إلى سيئة بإتيانها فى صورة ساخرة تدعوا إلى الاستخفاف والاستهزاء بها وكأنهم يقولون أنهم يأتوا بهذه الصفات لا لمحاسنهم الخُلقية ولكنهم يأتون بها لضعفهم وعدم القدرة على الإتيان بضدها .

وهذا أمر معلوم فى الشعر الجاهلى ونمط من أنماط السخرية عندهم ومن ذلك قول السمؤل :

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة إذا ما رأته " عامر " و" سلول " (١)

وهو أسلوب لطيف يميل إليه الساخر حيث يتجه إلى بيان الصفات التى تميز بها القوم فيجعلها أحد الركائز الأساسية للسخرية .

ومن ذلك قول النجاشى فى السخرية من بنى العجلان :

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل (٢)

فهو يتخذ من محامدهم الخلقية فى الوفاء وعدم الظلم ركيزة للسخرية منهم وكأنهم يفعلون ذلك عن ضعف .

ويقول قريط بن أنيف ناعتاً قومه للسخرية منهم :

لكن قومى وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشرفى شيء وإن هانا

---

(١) ديوان السمؤل ص ١١ تحقيق الشيخ محمد حسين آل ياسين طبعة بغداد ١٩٥٥م .
(٢) الهجاء الجاهلى ص ٢٠٩

يجزون عن ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

فهو هنا أيضا يتخذ من محامدهم الخلقية ركيزة للسخرية .

ومن هذا القبيل قول محرز الضبى يسخر من قبيلة مازن :

فهلا سعيتم سعى عصبة مازن وهل كفلانى[1] فى الوفاء سواء

فهو يسخر عن طريق التعريض بالمدح لقبيلة مازن وفى نفس الوقت يلومهم عن التخلى عن القيم المفروض الاتصاف بها فهى سخرية واستهزاء هادف غرضه التقويم والإصلاح .

ومن قبيل السخرية بالشىء المنتقد :

(٨) السخرية من النظرة القابضة للقلوب نظرة الحقد والكراهية .

ومن ذلك :

السخرية التى قالها عمرو بن الأهتم لمن ينظر إلى الغير نظرة حقد وكراهية فيسخر منه ويجعله كالأعور فى قوله :

وقـــوم ينظرون إلى شـــذراً عيونهم من البغضاء عور [2]

قـصـدت لهم بمخـزيه إذا مـا أصاح القوم واستمع النقير

فيسخر من هؤلاء الذين ينظرون إلى الآخرين نظرة تجعل الخوف والانقباض يعترى قلوبهم فيستهزىء بهم من هذا الفعل ويجعلهم فى هذه الصورة كالأعور الذى فقد إحدى عينيه فلا ينظر إلا بمؤخر واحدة .

صورة استهزائية ساخرة من هذا الشىء .

---

(١) المفضليات للضبى تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون دار المعارف .

(٢) المفضليات ص ٤١٢ والشزر هو النظر بمؤخر عينه نظرة مبغضة ، المخزية أى الخلة التى تخزيهم ، أصاح أى استمع ، النقير من النواقر أى الدواهى .

ومن قبيل السخرية بالشيء المنتقد :

(٩) السخرية من الصفات الذميمة ومنها " السخرية من البلاهة " .

ونلمح ذلك فى السخرية الموجهة إلى " بنى فقيم " فيقول الشاعر :

و(بنو الفـقـيم) قليلة أحـلامـهم ... ثط اللحى مـتـشـابهـوا الألوان[1]

لو يسـمـعـون بأكله أو شـربه ... (بعمان) أصبح جمعهم بعمان

منتأ بطين بـيـنـهـم ، وبـنـاتـهـم ... صـعـر الأنوف لريح كل دخـان

فنجد صورة ساخرة ضاحكة وقد ركز فيها الشاعر على السخرية ومن صفة البلاهة فيرميهم بضعف عقولهم مع طول لحيتهم مع تشابه ألوانهم كأنه بذلك يرميهم بالبلاهة حيث أنهم لو لم يكن بلهاء كان يكفى تشابه تكوينهم الجسدى وعليهم أن يفرقوا بينهم أن يطول أحدهم لحيته والآخر يقصرها ولكنهم بتركهم اللحية طويلة يجعلهم يتصفوا بالبلاهة إذ يثيروا السخرية منهم لتشابههم فى كل شيء فلو كان لديهم شيء من التعقل لفرقوا بينهم باللحية .

ومن ذلك أيضا :

(٩) السخرية من الحماقة .

نلمح ذلك فى السخرية التى قالها " سهم بن حنظلة " فى بنى عامر فقال :

إذا مـا لقـيت بنى عـامـر ... رأيت جـفـاء ونوكا كـبـيـراً [2]

نـعـام تمد بأعناقـهـا ... ويمنعـهـا نوكـهـا أن تطيـرا

---

(١) الحيوان للجاحظ جـ ٣ ص ١٩٢ .

(٢) المعانى الكبير لابن قتيبة جـ١ ص ٥٩٦ طبعة حيدر أباد الهند سنة ١٩٤٩م .

فسخرية " سهم بن حنظلة " موجهة إلى قبيلة " بنى عامر " فيشبههم بالنعام التى تكتفى بمد أعناقها وتشردها فى فرارها والذى يدفعها إلى ذلك حمقها فيرميهم بذلك الحمق والدناءة بسبب اتصافهم بهذه الصفة .

ومن قبيل السخرية بالشىء المنتقد :

(٩) السخرية من الشراهة فى حب الطعام .

ومن ذلك قول يزيد بن الصعق " فى السخرية من بنى تميم " :

إذا مـــا مـــات مـــيت من تميم فسـرك أن يعـيش فـجىء بزاد[١]

بخـبـــز ، أو بلحم أو بتـــمـــر أو الشىء الملفف فى البـــجـــاد

تراه ينقب البطحـــــاء حـــولا ليـأكل رأس لقـمـــان بن عـــاد

فنجد السخرية هنا موجهة إلى الشراهة فى حب الطعام فيرسم الشاعر صورة كاريكاتيرية ضاحكة مستخفاً بمن يتصفون بهذه الصفة فإذا حضرهم المنية وأتيت لهم بطعام فإنه ترد فيهم أرواحهم وهذه صورة ساخرة ضاحكة بهؤلاء القوم .

ثم يأتى الشاعر بلفظة (زاد) نكرة فى آخر البيت لتكون أشد سخرية من هؤلاء الذين يتصفون بهذه الصفة الذين يحبون أى طعام كان ما كان ، وكذلك قوله (ينقب) ليزيد الصورة سخرية واستهزاء حيث ينقبون عن الطعام فى أى مكان وبأى وسيلة .

ومن هذا القبيل قول أحد الشعراء يسخر من " بنى أسد " فى قوله :

---

(١) المعانى الكبير جـ١ ص ٥٨٠ البجاد هو الكساء .

إذا أسدى جاع يوماً ببلدة وكان سميناً كلبه فهو آكله [1]

فنجده يسخر من بنى أسد ويظهرهم فى صورة استهزائية .

ومن قبيل السخرية بالشىء المنتقد :

(١٠) السخرية من طول الأجسام وضآلة العقول .

ومن ذلك قول حسان بن ثابت فى السخرية من " بنى عبد المدان " :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر جسم البغال وأحلام العصافير [2]

فهو يسخر من طول أجسامهم فأجسامهم وإن كانت تدل على الهيبة إلا أن أفعالهم تدل على ضآلة العقول بالقياس إلى طول الأجسام وقد كان القوم يفتخرون بطول أجسامهم فجعلهم يستحون منها .

ويذكر صاحب العقد الفريد فى ذلك :

" فقالوا له يا أبا الوليد لقد تركتنا ونحن نستحى من طول أجسامنا بعد أن كنا نفخر بها " .

ومن الأمثلة التى ذكرناها حول الشىء المنتقد يتضح لنا أنها تهدف غالباً إلى التقويم ولذلك تكون السخرية الموجهة إلى الشىء المنتقد قد تهدف إلى التقويم فلا يكتفى الشاعر من خلالها بالأسلوب الساخر بل ينزع من خلال هذا الأسلوب نزعة أخلاقية ولعل مثل هذا الاتجاه الهادف يمثل رقى فى شعر السخرية الجاهلى لأن مثل هذه الغاية الهادفة لا يعمد إليها الشاعر ويبذل فيها هذا الجهد الواضح

(١) الحيوان للجاحظ جـ١ ص ٢٦٧ .

(٢) العقد الفريد لابن عبد ربه جـ٥ ص ٣٢٨ شرح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين طبعة القاهرة ١٩٦٥م .

فى اختياره للألفاظ إلا وهو راغب فى أن تخرج سخريته من أجل التقويم عن طريق اختيار الألفاظ الدالة مع الصياغة فى التعبير وجودة هذه الصياغة وتوفير الصور البيانية الدقيقة والملائمة لما يريد إبرازه .

وإذا تركنا النوع الأول من موضوعات السخرية وهو السخرية الموجهة إلى الشيء المنتقد فإننا نجد موضوع آخر يتطرق إلى السخرية الموجهة إلى :

(٢) السخرية من الشخص المنتقد ومن ذلك :

(١) السخرية الناتجة من التجارب الشخصية والفردية اليومية .

نحن نعلم أن الأدب ابن البيئة التى يظهر فيها والشاعر بما أنه يتسم برهافة الاحساس ورقة الشعور مع القدرة على التعبير الرائع والتصوير البديع لكل ما يشعر به ومن رؤيته له فينطلق للتعبير عنه عن طريق أى صورة من صور الإبداع الأدبى شعراً كان أو نثراً أو قصة فإذا أضفنا إلى ذلك الصدق الفنى وإذا توفر للإنتاج الأدبى الصدق الفنى بمعنى أن تكون هناك تجربة حقيقية تصدر عن حياته ومشاكله فستكون أشد وقعاً فى النفوس وإلى ذلك ذهب الأستاذ الدكتور النويهى حيث قال :

" ... والشعر الجاهلى بجميع موضوعاته وتجاربه وأفكاره وعواطفه قد نبت نباتاً طبيعياً من البيئة التى ظهر فيها فهو مرآه صادقة للحياة البيئية وما تفضله من الصفات التى يجب أن يكون عليها العربى وتنفر من أن يتصف العربى بضد هذه الصفات ... أضف إلى هذا أن جزء لا بأس به من هذا الشعر يدور على تجارب فردية عاناها الشاعر لا كعضو فى قبيلته ، بل كفرد له مشاكلة

الفردية الخاصة المستقلة عن مشاكل القبيلة . ومن هذا الصنف قصائد ومقطوعات غير قليلة نجدها متفرقة فى مختلف مجموعات الشعر الجاهلى ومصادر الأدب القديم ، لأفراد من البدو - رجالاً ونساء ينفسون عن تجارب شخصية حدثت لهم ولهن " [1] .

ومن هذا القبيل سخرية الجميع من زوجته أمامه فى قوله :

أمست أمامه ما تكلمنا مجنونه ... أم أحست أهل خروب

واستخدام الجميع لضمير الجمع فى قوله " ما تكلمنا " له مغزى فى نفسة حيث يوضح من خلاله مدى استعلاء زوجته عليه وأن هذا الأمر قد ترك أثراً قوياً فى نفسه مما جعله يظهر الاستهزاء منها . ولقد أعجبنى الأستاذ الدكتور محمد النويهى " إذ يشبهه بقولنا مستهزئين كما يقول أحدنا لصديق قابله فلم يحييه : مش معبرنا ليه ؟ مش عاجبينك ؟ ما إحناش قد المقام !!

وبنفس النبرة يجب أن نقرأ الشطر الأول كله ويعينك على هذا أن تتخيل زوجاً معاصراً من مجتمعنا المصرى يجد نفسه فى مثل هذه التجربة فيقول متهكماً ساخراً :

الست بسلامتها مبوزة إخرست ما بتنطقش ! مالها كده ملوية ، بوزها طوله شبر ؟ ما إحناش قد المقام ما لها ياخوية جرى لها إيه الولية دى ؟ اتجننت ركبها عفريت ... [2] .

---

(١) الشعر الجاهلى منهج فى دراسته وتقويمه للدكتور / محمد النويهى جـ٢ ص ٧٨١ وما بعدها الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة .
(٢) نفسه ص ٧٩٣ .

لاشك أن كل نبرة على حدة تؤكد غضب الزوج من زوجته وأن هذا الغضب قد وصل إلى حد جرح كرامته مما دفعه إلى الاستهزاء والسخرية منها ومن فعلتها هذه ويؤكد هذه السخرية بقوله لها .

" أم أحست أهل خروب " [1]

فصيغة الاستفهام استهزائية انكارية مع أننا سنجده فى البيت التالى يؤكد أنها لقيت رجلاً من أهلها فنجده يتجاهل ذلك على سبيل التهكم والسخرية ويتسائل فى حيرة وتردد ليزيد الأسلوب سخرية ثم يقول :

مرت براكب ملهوز – فقال لها ضرى الجميح ومسيه بتعذيب [2]

" براكب ملهوز " هو وسم كانت تعرف به قبيلة أهل الزوجة ونلاحظ أنه جاء بهذه الكناية بغرض الاستهزاء وكأن لسانه يستعف من أن ينطق باسم هذه القبيلة ويقول الدكتور النويهى فى ذلك :

" وعليك أن تطيل قراءة ملهوز ممزجاً صوتك بتمويج الأدب المتهكم ... لكن أنصت فى الشطر الثانى إلى نبرة أخرى فى صوت مختلس أجش" ضرى الجميح ! ومسيه بتعذيب " فالصوت غليظ مختنق فى " ضرى الجميح " لمحاولة قريبها أن يخفض منه ولاضطرابه خوف أن يسمعه سامع من أهل زوجها . والجميح يقلد لنا صوته عذا فى تهكم يضاعف من ضحكنا على قريبها وتندرنا عليه " .

ومن أسلوبه الساخر التهكمى قوله :

---

(١) أهل خروب اسم مكان .

(٢) الملهوز جمل موسوم بوسم تحت منبت لحيته وكانت قبائل العرب تتسم كل منها إبلها بعلامة خاصة فى موضع معين أو قفاه أو أنفه أو خده أو صدغه وتختلف تلك الوشوم من قبيلة إلى أخرى .

ولو أصابت لقالت ، وهى صادقة إن الرياضة ... لا تنصبك للشيب

فكلمة " لو أصابت " هذه الكلمة فيها سخرية لاذعة وهجاء تهكمى فهو ينفى عنها العقل ويجعلها مجردة منه فلاشك أن هذا أسلوب قوى من السخرية والاستهزاء .

ويستمر الجميح فى هذه السخرية بقوله :

يأبى الذكاء ... ويأبى أن شيخكو لن يعطى الآن عن ضرب وتأديب

أسلوب استنكارى استهزائى فهو يسخر منها لأنها لو كان لديها عقل لعرفت أنه ذو حنكة وتجارب ومن هنا كانت ألفاظه مليئة بالسخرية الذى يرد به على هذه الزوجة التى جرحت كرامته بما فعلته من سلوك نحوه .

ويستمر فى سخريته قائلاً :

أما إذا حردت حردى فمجريه جرداء تمنع غيلا غير مقروب [1]

وإن يكن حادث يخشى فذو علق تظل تزجره من خشية الذيب

فنجد فنجد هذه السخرية من الجميح لزوجته فى وقت الأمن فيجعلها كاللبؤة الكاسرة ووقت الخوف تموت رعباً من الخوف فهو يتعجب منها بأسلوب هجائى ساخر مستهزأً بها فهى تتجرأ عليه فى وقت السلم وحين تتعرض لحادثة معينة كأن يهاجمها ذئب فتكون فى غاية الخوف والرعب ... .

---

(١) حردت حردى أى قصدت نحوى ، مجريه أى لبؤه ذات جراء والجراء جمع جرو وهو ولد الحيوان ، جرداء هى صفة أنثى الأسد حيث أنها خالية من الشعر ، الغيل هو الشجر الملتف حيث تعيش الأسود ، غير مقروب أى لا تسمح من الاقتراب منه لأن فيه أطفالها .
انظر المفضليات للضبى القصيدة الرابعة .

ويقول الدكتور النويهى فى ذلك

" الذى يجعلها تخاف الذئب كل هذا الخوف يقوى الصورة الساخرة التى يريد الشاعر أن يرسمها لزوجته فهى تهاجمه كاللبؤة المفترسة فى وقت السلم وهى تموت رعباً من الذئب فى وقت الخوف ... وقد بلغ الجميع بسخريته ما شاء أن يبلغ وأضحك سامعيه ضحكاً قوياً من هذه التى تهاجمه كاللبؤة الكاسرة وقت الأمن وتموت رعباً من الخوف [1] .

وبذلك نرى استخدام الجميح للأسلوب الساخر فى الاستهزاء من زوجته وإلى هذا ذهب الأستاذ الدكتور أحمد عبيد حيث قال

" واستخدام " اللهجة الساخرة التى علق بها الشاعر على سلوك زوجته ومحاولته تطويعه لما تريد ويريد أهلها ، كما تكثر فيها التعبيرات الكنائية من مثل قوله : يأبى الذكاء ويأبى أن شيخكم ومنها تصوير زوجته فى حال الثورة والغضب باللبؤة ذات الجراء ، وفى حال الفزع والخوف بالصبى الخائف المذعور ... وهو من التشبيه البليغ " [2] .

ومن السخرية الموجهة إلى شخص منتقد نابعة من التجارب الشخصية سخرية لبيد بن ربيعة العامرى من جواب بن عوف الكلابى والسبب فى هذه السخرية لأن جواب بن عوف الكلابى قضى بنفى "بنى جعفر" قوم لبيد لهذا الحكم الجائر فقال يتهكم بجواب وينسبه إلى قوم أمه وكانت غنوية من بنى حرثان من بنى ضبية ويشبهه استهزاء به – بابن كسرى قاتل أبيه فى غطرسته وكبره حيث أغلق أبوابه دون الناس ويتوعده لبيد بغارة شديدة فيها فرسان بنى جعفر فيقول :

---

(١) الشعر الجاهلى منهج فى دراسته وتقويمه ص ٨٠٣ للدكتور النويهى .
(٢) مختارات أدبية للأستاذ الدكتور أحمد عبد الغفار عبيد ص ٤٥ طبعة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م

ولدت بنو حرثان فرخ محرق بلوى الوضيعة مرتج الأبواب [1]

لا تسقنى بيديك إن لم ألتمس نعم الضجوع بغارة أسراب

تهدى أوائلهن كل طمرة جرداء مثل هراوة الأعزاب

يحملن فتيان الوغى من جعفر شعثاً كأنهم أسود الغاب

ثم يخاطب بنى كلاب منكراً عليهم الرضا بظلم قومه ، مبيناً جورهم وعدوانهم محتجاً على حكم " جواب " هذا الذى لا يرى فيه غير الفطرسة والبطر كأنه بهذا الشموع والاستعلاء ملك من الملوك لا يرد جواباً ولا يكلم أحد .

يقول فى ذلك :

أبنى كلاب كيف تنفى جعفر وبنو ضبينة حاضرو الأخباب

قتلوا ابن عروة ثم لطو دونه حتى نحاكمهم إلى جواب

بين ابن قطرة وابن هاتك عرشه ما إن يجود لوافدٍ بخطاب

" وأسلحة لبيد فى هذا الهجاء هى السخرية والوعيد كما ترى فى البيت الأخير " [2] .

ومن السخرية بالشخص المنتقد الناتجة عن التجارب الفردية اليومية قصيدة سويد بن أبى كاهل اليشكرى التى يتعرض فيها لموقف عدائي لشخص ما فيسخر منه وينتقص من قدره ويحط من الفضائل النفسية بالنسبة لهذا الشخص . وهذه القصيدة تبدأ بقوله :

(١) انظر ديوان لبيد بن ربيعة العامرى ص ٢١ وما بعدها تحقيق إحسان عباس .
بنو حرثان : من غنى ، فرخ محرق : ابن كسرى ، النعيم أى الأبل ، الضجوع : واد وبنو ضبينة يعرفوا بالضجوع ، الطمّرة أى المشرفة من الخيل والسريعة ، الغاب أى الأجسام ، شعث أي عنبر ، الوغى أى الحرب .
(٢) لبيد بن ربيعة العامرى للدكتور يحيى الجبورى ص ٣٧٣ دار القلم الكويت .

بسطت رابعة الحبل لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع

فبعد أن يتحدث سويد عن فنون شتى من خلال قصيدته نراه بعد ذلك يسخر من عدوه قائلاً :

رب من أنضجت غيظاً قلبه قد تمنى لى موتاً لم يطعَ [1]
ويرانى كالشجا فى حلقه عسراً مخرجة ما ينتزع
مزبد - يخطر ما لم يرنى فإذا أسمعته صوتى انقمع
قد كفانى الله ما فى نفسه ومتى ما يكف شيئاً لا يضع

فهو يمهد للفخر بنفسه حيث تبدو سخريته ممن يرضى بالذل والهوان والإقامة فى مكان يتعرض فيه للإساءة فهو يأتى بأسلوب استفهامى إنكارى توبيخى فى قوله " كيف " كأنه يستنكر أن يجعل هذه الصفة من صفة الأحرار لأن صفة الذل ملازمة للعبد وليس للحر صورة استهزائية ساخرة بمن يستسلم للموت .

ولننظر إلى الصورة الساخرة من هذا العدو فيقول :

ويحيينى إذا لاقيته وإذا يخلو له لحمى رتع

فهو يسخر من هذا العدو الحاقد السيء الطبع الذى يلاقيه محيياً فإذا غاب عن ناظريه رتع فى لحمه بالغيبة ، وما أقبحها من رذيلة سخرية مريرة من هذا العدو الحاقد .

---

(١) نظرات فى الأدب الجاهلى للدكتور أحمد عبد الغفار عبيد ص ١٢٨ ، ١٢٩ دار الحضرى للطباعة وانظر المفضليات ص ١٩١ وما بعدها ، الشجا هو ما يعترض فى الحلق من عظم ونحوه ، مزيد كالجمل الهائج إذا ظهر الزبد على مشافره وهو لغامه الأبيض يخطر من الخطر وهو ضرب الفحل بذنبه إذا هاج ، انقمع أى سكن وتضاءل .

ومن اللغة الساخرة المتصلة بالشخص المنتقد :

(٢) السخرية من المعايب الخُلقية .

ومن ذلك قول الشماخ بن ضرار يسخر من نساء بنى سليم فيقول :

وإنى لمن قـوم - على أن ذمتـهم إذا أولـوا لـم يـولـوا بـالأنـافـع
وإنك من قـــوم تحن نســـاؤهم إلى الجانب الأقصى حنين المنائح [١]

وهو فى ذلك يرمى نساء بنى سليم ببذل عرضهم للأجانب ولاشك أنها صورة للتهكم والسخرية التى يركز فيها الشاعر فكرة فأتى بهذه الصورة الساخرة .[٢]

ومن ذلك أيضاً قول " خداش بن زهير " يسخر من عبد الله بن جدعان :

وأنبـــئت ذا الضـــرع ســـبنى فأنى بذى الضرع ابن جدعان عالم
أغـــرك إن كـــانت ببطنك عكنه وأنـك مـكـفـى بمـكـة طـاعـم
وترضى بأن يهدى لك العقل مصلحاً وتحنق أن تجنى عليك العظائم
أبى لـكم أن الـنـفـــــوس أذلة وأن القرى عن واجب الضيف عائم
وأن الحـلـوم لا حـلـوم وأنـتـم من الجـهل طيـر تحت الماء دائم
ولولا رجـــال من علـى أعـــزة سرقتم ثياب البيت والبيت قائم[٣]

ونجد فى هذه الأبيات تهكم وسخرية من " خداش بن زهير " تجاه عبد الله ابن جدعان لا ينفك عنه والمفروض أن من هذه صفته لا يسب من يتسم بالشرف والكرامة والسؤدد .

(١) ديوان الشماخ بن ضرار تحقيق صلاح الدين الهادى طبعة دار المعارف ص ١٠٧ ، ١٠٨ .
(٢) تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعى تحقيق محمد سعيد العريان جـ٣ ص ٨٠
(٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ١ ص ٦٥ تحقيق أحمد محمد شاكر دار المعارف القاهرة .
العكنة أى سمنة البطن ، العقل أى ما يحبس من الكبش بين رجليه ليعرف سمته عائم أى متأخر ، بنو على من كنانة .

وقوله فى الشطر الثانى " وأنى بذى الضرع بن جدعان عالم " فنراه يتهكم منه حيث أوضح أن صفة الذل والهوان ملازمة له وهو ينبىء عن حقيقة فهو عالم بما يقول ولعله بذلك يقوى من شأنه حيث يتضح قدرته الفائقة على الاتيان بهذا التعبير الساخر وصدقه فيما يقول .

فالإنسان الساخر إنسان نشيط وعبقرى وله قدرة فائقة على الإحاطة بجميع من حوله من ظواهر اجتماعية سواء أكانت خاصة بحياة الأفراد أو الجماعات وهو يستخدم سلاح الموهبة الفذة والقدرة الفائقة على مواجهة النقائص بصياغة أساليب ساخرة لوضعها تحت نظر العامة حتى تتكاتف الجهود من أجل القضاء عليها .

ومن هذا قوله :

أغرك أن كانت ببطنك عكنة وأنك مكفى بمكه طاعم [1]

هذا أسلوب ساخر يستخف الساخر ويستهزىء بالمسخور منه فهو لا يسأل عن شىء ولكنه يسخر منه قائلاً ما الذى دفع بك إلى هذا السبيل ؟ أسلوب استفهام انكارى توبيخى ثم يفترض عدة إجابات ساخرة .

فيقول :

" أكنت تعول على مدد من قوة ، وسند من جاه ؟ أم أبصرت بطنك وما انتابك من شحم فنطقت ؟ وما كان ورم البطن بمخيف ولا شحمها بمؤذن بقوة ... أم تراك خدعت بما تحصل عليه من كفاء وطعام " [2] .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة جـ١ ص ٦٥ .

(٢) الهجاء الجاهلى صوره وأساليبه ألفية للدكتور عباس بيومى عجلان ص ١٧٤ طبعة دار المعارف ١٩٨٢ .

ومن السخرية من الشخص المنتقد ما كان موجها إلى :

(٣) السخرية بغرض الحط من شأنه والانتقاص من قدره .

ولاشك أن السخرية بهذه الطريقة تجعل السمة التى يلجأ إليها الساخر تجاه الشخص المنتقد علامة مميزة له .

ومن ذلك قول النابغة الذبيانى ساخراً من عامر بن الطفيل :

فإن يك عامر قد قال جهلاً ... فإن مطيَّه الجهل السباب[1]

فكن كأبيك أو كأبى براء ... تصادفك الحكومة والصواب

فلا يذهب بلبك طائشات ... من الخيلاء ليس لهن باب

فإنك سوف تحكم أو تناهى ... إذا ما شبت أو شاب الغراب

وهى سخرية موجهة إلى رجل " سيد " ولو أن النابغة نال منه بأن حط من شرفه لما أغاظه ذلك ولكن عامراً يحرص على أن يكون سيد قومه ويزعم أنه أولى بالسيادة من أبيه وعمه ، وكانت لها السيادة من قبل ، فأتاه النابغة من حيث لا يحتسب ورماه فى مقتل ، مدعياً أنه علم بقول يتضمن جهلاً ينسب إلى عامر وهو لا يتحقق منه فإذا كان حقاً فلا عجب فهو ما يزال شاباً متهوراً لم تهذبه التجارب ولا يعتب عليه قوله : والفكرة التى يبنى عليها القول متفقة مع ما سبق من سخرية حيث وضح أنه لا يتتبع مواطن الشر فيه ولكنه أمر شائع ومشهور وهذا أدعى للسخرية منه والاستهزاء به خاصة وهو سيد فلا تجب له السيادة .

---

(١) العمدة لابن رشيق تحقيق مفيد قميحة جـ٢ ص ٣٨١ طبعة دار الكتب العلمية ببيروت لبنان وانظر ديوان النابغة الذبيانى ص ١٠٩ ، ١١٠ تحقيق محمد أبو الفضل طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٧م .
أبيه : الطفيل بن مالك ، أبو براء عمه ملاعب الأسنة . حى يوم كان لبنى ذبيان على عامر ، الحكومة أى الحكم ، طائشات أى مرتفعات .

وصيغة الشرط التى أتى بها النابغة توحى بالشك والارتياب فى القول الذى سمعه عن عامر فعامر سيداً والسيد لا يخطأ ثم يربط بين أجزاء الكلام حيث يرى أن الخطأ الذى صدر منه خطأ منتظر من عامر وكأن هناك مسافة بعيدة بينه وبين السيادة .

وهكذا كان أسلوب ساخر من سيد يحط من شأنه وينتقص من قدره فلا يجعله أهل للسيادة .

ولنتأمل استمراره فى التهكم به عن طريق إتيانه بالنصيحة المتعلقة بالسخرية فيقول فإن كنت تبغى أن تصل إلى الرياسة فاتبع نهج أبيك أو سبيل عمك وكأنه بذلك أقل منهم فى المنزلة فيسخر منه لادعائه أن يتفوق على هؤلاء فى السيادة والمنزلة وذلك فى قوله :

فكن كأبيك أو كأبى براء تصادفك الحكومة والصواب

ثم يستمر فى أسلوبه الساخر عن طريق اسداء النصح إليه المغلف بالتهكم والسخرية المؤلمة فيرميه بالحماقة التى تجعله يتخيل بقدرته الفائقة على الأحقية بالسيادة وهو لا يمتلك أقل مقومات السيادة وهو قول الحكماء أصحاب التجارب التى اكتسبوا حنكة سياسية وخبرة اجتماعية بفضل ما مروا به من تجارب .

ويستمر فى أسلوبه الساخر قائلاً له :

ولا تذهب بحلمك طائشات من الخيلاء ليس لهن باب

فالبيت نصيحة ولكن نصيحة مغلفة بالسخرية فيقول : له أنه لا سبيل إلى سيادته على قومه إلا ببلوغه الحلم ثم ينصحه قائلاً : عليك بالجهاد كى تصل إلى

حلمك أن تصبح لك السيادة على قومك فى وقت مشيب الغراب والغراب يستحيل أن يشيب وكأن أمر وصوله إلى السيادة أمر مستحيل .

وهكذا كانت السخرية تنبع من كل كلمة على حدة فالشطر الأول من البيت يعطيه الأمان فى وصوله إلى الحلم يوما ما . ولكن بعد زمن - ثم يعلق هذا الزمن بمشيب الغراب ولن يأتى هذا الزمن الذى يشيب فيه الغراب فيترتب عليه عدم مجيء الزمن الذى تكتب له فيه الرياسة والسيادة ولاشك أن النابغة فى هذه الأبيات كان ساخراً جيداً لأنه فى بداية السخرية يظهر عدم إرادة الشر بالساخر بل أنه يعطيه النصيحة فينأى عن الأتيان بألفاظ فاحشة أو بذيئة واعتقد أن ذلك يكون أشد إيلاماً على من يتصف بالسيادة من دونه .

وإلى هذا ذهب الأستاذ عباس بيومى عجلان [1] حيث قال :

" ومن هنا فالشاعر الجيد من مميزاته إظهار البراءة من إرادة الشر وإخراج ما يقوله مخرج الناصح الشفيق وهو الموغر الصدر ، المضطغن بالنفس ، كذلك تأت الأبيات عن السباب وابتعدت عن الرمى بالفاحش من القول . وهذا يؤلم المسخور منه إذا كان سيداً ولا يوجع السوقة . وهذه المعانى جميعها قصد إليها النابغة وابتغاها فى بنائه الفنى ونجح فى إبراز صياغتها والتعبير عنها .

ويدلنا على هذا أنه حين وفد على قومه قال للشعراء " ما قلتم لعامر بن الطفيل وما قال لكم ؟ " ... فأنشدوه ... فقال " أفحشتم على الرجل وهو شريف لا يقال له مثل ذلك " .. ثم قال : شعره : فلما بلغ عامر ما قال النابغة شق عليه وقال " ما هجانى أحد حتى هجانى النابغة جعلنى القوم رئيساً ، وجعلنى النابغة سفيهاً - جاهلاً وتهكم بى " [2] .

(١) الهجاء الجاهلى صوره وأساليبه الفنية ص ١٧٩ ، ١٨١ للدكتور عباس بيومى عجلان .
(٢) العمدة لابن رشيق القيروانى جـ٢ ص ٣٨٢

ومن ذلك أيضا قول " زياد الأعجم " [1] :

فقم صاغراً يا شيخ جرم فإنما يقال لشيخ الصدق قم غير صاغر

فمن أنتم إنا نسينا من أنتم وريحكم من أى ريح الأعاصر

فنجد أسلوب ساخر حيث يستخف به ويحتقره ويستهزىء به فيأمره بالقيام صاغراً أى ذليلاً ثم يزيد من تهكمه واستهزائه به فيصفه بالكذب . وهذا ما يجعله يأمره بالقيام ذليلاً لأن من يتصف بصفة الصدق يقوم فى عزة وكبرياء ثم يتساءل فى أسلوب استفهامى انكارى توبيخى كأنه ينسى أو يتناسى من هم ومن أين أتوا وكأنهم لتفاهتهم نكرة الوجود فهم أقل منزلة من أن يخطروا بباله ثم يستمر فى هذا الأسلوب الساخر فى قوله :

أأنتم جئتم مع النمل والدبّا فطارٌ وهذا شيخكم غير طائر

أسلوب إنكارى استفهامى ساخر يسخر منهم ويستنكر وجودهم مع الآدميين بل يجعلهم كالحشرات والحيوانات ويؤكد هذه السخرية اللاذعة فى قوله :

قضى الله خلق الناس ثم خلقتم بقية خلق الله آخر آخر [2]

فيؤكد سخريته منهم واستهزائه بهم واحتقاره لهم حيث ينفى عنهم صفة الآدمية فالله قد خلق الآدميين ثم أنتم جنس آخر غير الجنس الآدمى . أسلوب تهكمى ساخر يستخف بهم من خلال سلبه إياهم صفة الإنسانية .

ومن السخرية المتصلة بالشخص المنتقد :

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٨٢ .
(٢) نفسه ص ٣٨٢ .

(٤) السخريه المتصلة بالدناءة فى جميع الأوصاف الحسية والمعنوية

فالأسلوب الساخر الذى له دلالة واضحة على الاستهزاء والاستخفاف بالشخص المنتقد كان واضحاً فى الشعر الجاهلى وهذا شىء فرضته البيئة الجاهلية حيث أن الساخر عامة يدعو إلى الترهيب والتخويف ولا يكون إلا بإظهار قوة الأديب وعلى الوجه الآخر إظهار المسخور منه بالخسية والدناءة فى جميع أوصافه الحسية والمعنوية

ومن ذلك قول الأعشى فى السخرية من كسرى ملك الفرس قبل وقعة " ذى قار " بقوله

فاقعد عليك التاج معتصباً به لا تتطلب سَوامَنا فتعبدا (١)

فهو يخاطبه بأسلوب تهكمى ساخر مستهزأً به فيجعله كالنساء التى تعتصب رأسها ولا حول لها ولا قوة . فاللفظ الساخر فى قوله (فاقعد) وقوله (معتصباً به) وهى صفات خاصة بالنساء كأنه يسخر منه بعدم قدرته على أفعال الرجال بأسلوب توبيخى استهزائى ويطلب منه أن لا يقدم على مساومتهم فإن فعل ذلك فسيكون عبداً بالنسبة لهم

ومن ذلك أيضا قول " الشماخ بن ضرار " ساخراً من " الربيع بن علياء السلمى وقومه " يقول

نبئت أن ربيعاً أن رعى إبلاً يهدى إلى خناة ثانى الجيد (٢)

(١) ديوان الأعشى ص ٥٨ سوامنا أى تسومنا الشىء أى تكلفنا إياه التعبد أى الاستبعاد
(٢) الشماخ بن ضرار تأليف صلاح الدين الهادى حياته وشعره ص ١٢٢ وديوان الشماخ بن ضرار ق٤ ص ٩

فهو يعبر عن تهكمه واستخفافه بالربيع الذى لم يزد من كونه راعى غنم أبطرته النعمة بعد أن أصبحت له إبل يرعاها بنفسه وراح يتطاول على مقام من هم أرفع منه مقاماً ويحسب نفسه نديماً له .

والتهكم والاستخفاف من أبلغ الهجاء وأملحه [1] .

ومن هذا أيضا قول الحطيئة معرضاً بالزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبُغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى [2]

أى أن الأدمية عنده لا تتعدى إلا أن يأكل ويلبس ويقال أن الزبرقان بن بدر لما سمع هذه السخرية تتطاير من الألم والغيظ وذهب إلى عمر وشكا إليه فحاول عمر أن يخفف من حفيظته ويلطف من ضغينته فقال : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة فقال الزبرقان بن بدر أو ما تبلغ مروءتى إلا أن أكل وألبس . فقال عمر : علىّ بحسان فجيء به فسأله فقال : لم يهجه ولكنه سلح عليه .

هكذا كانت السخرية اللاذعة التى ترمى إلى الاستهزاء بالزبرقان بن بدر وتظهره فى هذه الصورة التهكمية فتصفه بالدناءة فى جميع الأوصاف الحسية والمعنوية .

ومن السخرية المتصلة بالشخص المنتقد :

(٥) السخرية المتصلة بالعيوب الجسدية .

ومن أشهر الشعراء الذين اشتهروا بهذا اللون هو الحطيئة ويعتبر من الشعراء القلائل الذين ارتزقوا بالسخرية كحرفة ومصدر لرزقهم ولنتأمل سخريته

---

(١) العمدة جـ٢ ص ١٣٩ .

(٢) ديوان الحطيئة ص ٥٠ تحقيق دكتورة نعمات محمد أمين مكتبة الخانجى القاهرة طبعة أولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م مطبعة المدنى .
أى انك ترضى بأن تشبع وتلبس .

التى تدل على قوته الابداعية فى خلق صور جديدة مبتكرة تكون أقوى على الضحك والاستهزاء فيقول ساخراً من " بجاد بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس " :

أبلغ بنى عـــبس بأن نجـــادهم لؤم وأن أباهم كـــالهـــجـــرس
يعطى الخسيسة راغباً من رامها بالضـــيم بعـــد تكلح وتعـــبس

فهو يسخر من هذا العبسى الذى يتصف بقباحة الوجه ويزيد من السخرية به حيث يجعل وجهه كالقرد فلا يقضى حاجة أحد بل يكلح وجهه ويجعله مكشوفاً غير مستوراً بالحياء ويعبس أى يقطب جبينه فيزيد وجهه قباحة وإذا أعطى فإنه يعطى عن يد خسيس وذليل .

تصوير ساخر لهذا الرجل العبوس بما يدل على براعة الحطيئة وقدرته الابداعية فى الاتيان بهذه الصورة التى تدعوا إلى النفور من هذا الشخص بسبب صورته القبيحة .

ولقد وفق الحطيئة فى اختياره للألفاظ التى توحى بالسخرية وتثير الضحك وفى نفس الوقت تثير الاشمئزاز والنفور فى قوله " هجرس " .

ومن ذلك النوع سخرية زوجة " قتادة بن مغرب " الذى يتمثل فى السخرية بذكر المعايب الجسدية فى قولها فى السخرية من زوجها :

حلفت - ولم أكـــذب وإلا فكل مـــا ملكت لبـيت الله أهديه حـافـيـه[1]
لو أن المنايا أعرضت لاقتحمتها مـــخـــافـــة فـيـه إن فـيـه لداهيـه
فما جيفه الخنزير عند ابن مغرب قـــتـــاده إلا ريح مـــسك وغـــاليـــة
فكيف اصطبارى يا قـتـادة بعدمـا شممت الذى فيك أثنى صمـا خيـة

(١) ديوان الحطيئة ص ١٠٣ الهجرس هو الثعلب ويقال القرد ، نجادهم أى أصلهم ، الضيم أى الذل ، الخسيسة أى الذليلة ، رامها أى طلبها .

فنجد سخريتها تتوجه إلى إظهار " قتادة " فى صورة هزلية استهزائية تثير الاشمئزاز والنفور عن طريق ذكر المعايب الجسدية له فنجد سخريتها سريعة النفاذ إلى ذكر مواطن العيب والخلل ومواضع النقص وتلتقطها بعينها الناقدة وترى فيها مادة غنية بالصور فتصف رائحته أنها لا تقوى على شمها ولا تصطبر على هذه الرائحة المنفرة فهى تجعل رائحته تتسبب له فى عاهة وهى الصمم .

وهكذا استغلت الزوجة " عيب زوجها الجسدى " وتفننت فى صياغته صياغة تدعو إلى السخرية والتهكم والاشمئزاز والاستهزاء به .

ومن هذا القبيل أيضاً قول الخنساء لدريد بن الصمة حينما خطبها فرفضته فسخر منها بقوله :

وقـــاك الله يا ابنه آل عـــمـــرو من الفـتـيـان أشـبـاهى ونفسى[1]
وقـــالت اننى شـــيخ كـــبـــيـــر ومـــا نبـــأتـهـــا أنى ابن أمس
فـــلا تلدى ولا ينكحك مـــثلى إذا مـــــا ليلة طرقت بـنحس

فأجابته ساخرة من عيوبه الجسدية قائلة :

مـــعـــاذ الله ينكحنى حـــبـــركى قصير الشبر من جشم بن بكر[2]
يرى شـــرفـــاً ومكرمـــة أتاها إذاً أغـــذى الجليس جـــريم تمر
ولو أصـــبـــحت فى جـــشم هديًا إذاً أصـــبـــحت فى دنس وفـــقـــر
قـــبـــيلة إذا ســـمـــعـــوا بذعـــر تخـفىّ جـمـعـهم فى كل جـحـر

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى للدكتور أحمد محمد الحوفى دار نهضة مصر .
أتانى أى أفسد .
وانظر شرح الحماسة للتبريزى جـ٤ ص ٤٢ .
(٢) ديوان الخنساء ص ٥٦ وفى الديوان يدى مجداً ومكرمة وأمالى المرتضى جـ١ ص ١٣٥ الطبعة الأولى مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م .
طرقت بنحس أى جاءت بظلمة وغيره ، شر نبيت أى غليظ الكفين أو الأصابع ، حبركى أى طويل الظهر قصير الرجلين أو ضعيفها يكاد يكون مقعداً ، القصير الشبر أى المتقارب الخطو ، جريم أى تمر يابس ، دنس أى غليظ .

فنجدها تسخر من معايبه الجسدية فتصفه بضعف البنية الجسدية وبطء المشية والشيخوخة والبخل ولم تكتفى بذلك بل جعلت صفة البخل متأصلة فى قبيلته ويظهر استهزائها به فى تصويرها له بهذه المعايب الجسدية التى ينفر العرب عادة ممن يتصفوا بها من رجالهم تصويراً يظهره فى صورة يستخف به ويستهزىء به .

ومن هذا الأسلوب الساخر المتصل بالمعايب الجسدية سخرية " يزيد بن قُنافة " من حاتماً حينما استنجد به ففر وتركه للأعداء فنجده يسخر منه ويشبهه بالثور الهائج وقت الكلام عن حرب ما وعند احتدام القتال يكون كالنعامة ولا يكتفى بذلك بل يجعل رجله فى طولها كالنعامة فيسخر من معايبه الجسدية ويزيد الأسلوب تهكماً وسخرية حينما يسلبه العقل فهو كالحيوان فى هيئته الجسدية وفى صفاته المعنوية .

وذلك فى قوله :

لعمرى وما عمرى علىّ بهينٌ ... لبئس الفتى المدعُوُّ بالليل حاتم[1]

غداه أتى كالثور أخرج فاتقى ... بجبهته أقتاله وهو قائم

كأن بصحراء المريط نعامة ... تبادرها جُنحَ الظلام نعائم

أعارتك رجليها وهافى لبُها ... وقد جردت بيض المتون صوارم

ومن السخرية بالشخص المنتقد :

(٦) السخرية بذكر المثالب التى يسخر فيها من الانتقاص من الفضائل النفسية والإنسانية .

---

(١) الشعر الجاهلى للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى ٢٤٦ ، ٢٤٧ دار الكتاب اللبنانى بيروت – لبنان – خص الليل لشدة الهول فيه ، أحرج أى ضيق عليه والأقتال جمع قتل بكسر القاف وسكون التاء وهو العدو المقاتل أى أنه خرج كالثور الهائج ثم ولى وقت الدفاع ، هافى لبها أى ضعيف عقلها .

وذلك أن الساخر ناقد بطبعه عياب تسترعيه حماقات الناس وأخطاؤهم بأكثر مما تستعريه فضائلهم فهو لا يفطن إلى مثله الأعلى إلا عن طريق ما يعرضه ويثيره فكأنه لا يهتدى إلى ذكر هذه الانتقادات إلا بدافع من غضبه ويثيره فكأنه لا يهتدى إلى ذكر هذه الانتقادات إلا بدافع من غضبه فالساخر ساخط على المجتمع نتيجة لما قاسه فى حياته واعتقد أن الحطيئة بنشأته الدميمة جعلته أكثر انتقاداً وكراهية وحقداً لمن كانوا يتفوقون عليه فى النعمة والسعادة فنبغ فى السخرية والتهكم بمحاولة الانتقاص من شأن هؤلاء فى الفضائل النفسية .

ومن ذلك قوله ساخراً من رجال " عبس " :

لهم نفر مثل التيوس ونسوة مماجين مثل الأتن النعرات [1]

فيسخر من رجال " عبس " حيث يجعلهم كالتيوس ونساء مماجين كأنهم الأتن دخل فى أنفها الذباب فهى تلوى رؤوسها وتذهب لوجهها نافرة ، تنعر نعيراً قبيحاً ، صوره هزلية ضاحكة من هؤلاء الرجال وتلك النساء .

ويزيد الصورة استهزاء وسخرية حيث يسلبهم صفة الكرم ويرميهم بالبخل فى قوله :

بكيت على مذق جنيت قربته ألا كل عبس على الزاد شائح[2]

ويقول الحطيئة فى وصف رجلين بالبخل فى قوله ساخراً منهم :

---

(١) ديوان الحطيئة ص ١١٣ تحقيق دكتورة نعمات محمد أمين طبعة أولى ١٩٨٧م .
النعر على وزن فرح من الحمير والخيل الذى دخلت فى أنفه النُعرة بضم النون وهى ذبابة زرقاء تسقط فى الدواب فتؤذيها وتدخل فى أنوف الخيل والحمير فتصيح من خياشيمها .
(٢) الديوان ص ٥٠ .

وحمدت إلهى أننى لم أجدكما من الجوع مأوى أو من الخوف مهربا[1]

ضبيان حجليان فى أمن الكدى إذا ما أحسا حارش الليل ذنّبا

فهو يصف هذين الرجلين البخيلين كيف يهربان ممن يبغيهما كأن أحدهما ضب عجوز قد اتخذ جحراً فى أرض صلبة فإذا أحس بشىء اتقاه بذنبه .

ومن ذلك السخرية قول زهير بن أبى سلمى :

لآل مصاد الذين اعتدوا على الجار فاستولوا على أمواله فنجده يعمد إلى مناقشة تلك العشيرة التى استولت على مال جيرانها مع السخرية والتهكم من فعلهم المشين فهو يسعى من خلال أسلوب ساخر أن يبين الحق لآل حصاد بأسلوب ساخر فى تعديده لـ (إما) كأنه يقول لهم إنكم مهما التمستم من أعذار فى سلوككم المشين هذا فلن يقبل منكم لأن الحق أن يكون لهم الطمأنينة – ويوضح لهم أن الحق أن البينة على المدعى واليمين على من أنكر فإذا لم يجد هذا ولا ذاك فليعرض الأمر على من له سلطان حتى ينصف المظلوم من الظالم .

ثم يأتى إلى أسلوب ساخر فى بيتين محددين لآل حصن فى قوله :

جوار شاهد عدل عليكم وسيان الكفالةُ والتلاء[2]

بأى الجيرتين أجرتموه فلم يصلح لكم إلا الأداء

---

(١) ديوان الحطيئة ص ٢٠٨ أى خفت الله لم تكونا مأمنا ولا عندكما منعة ، ضبيان حجليان يقول هو أخدع من الضبى وذلك أنه يدخل حجرة إذا أحس بشىء فلا يكاد يخرج منه والجحل هو الضخم .

(٢) ديوان زهير ص ٧٥ للامام العباس أحمد نسخة مصورة من طبعة دار الكتب . بأى الجيرتين أجرتموه أى إن كنتم أجرتموه وعقدتم له فقد وجب حقه عليكم وإن كان اختاركم من قبل نفسه فهو واجب الجوار .

فهو يسخر من آل حصين فيقول أن هذا الرجل قد لجأ إليكم فأجرتموه وأخذتم على أنفسكم العهد والميثاق أن تحموه فقد وجب عليكم أن توفوا بالعهد ولا تنقضوا الميثاق .

وأخذكم مال " أبى طريف " نقض للعهد وخيانة للميثاق وهذا ما لا يصح ولا يليق . وإن كان أبو طريف اختاركم فنزل بدياركم من غير أن يطلب جواراً أو يعاهدكم على حماية – فله حق الضيافة ، وعليكم واجب الكرامة والشهامة فأخذكم ماله حينئذ اعتداء على ضيف عليكم له أمل فيكم ، فأداء المال إليه واجب فى كل حال .

وهكذا كان زهير من الشعراء الجاهليين الذين تناولوا المثالب النفسية التى تنتقص من شأن فاعليها فى شعره .

ومن ذلك أيضا قول الأعشى لـ " علقمة بن علاثة " :

تبيتون فى المشتى ملاء بُطُونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا (١)

فهو يسخر منه بالانتقاص من الفضائل النفسية بالنسبة له فيرميه بأسلوب ساخر تهكمى يرميه بالبخل حيث يصوره فى وقت الشتاء وهو عادة ما كانوا يتعرضون للقحط فى هذا الفصل فكان ما لديه يعطى الذى لا يملك أما هو حتى جاره فلم يعطه مما امتلك من طعام .

ومن ذلك أيضا سخرية الحطيئة من عتيبة بن النهاش العجلى وهو من عظماء بكر وقد أكرمه واسترضاه . فقال :

---

(١) ديوان الأعشى تحقيق كامل سليمان دار الكتاب اللبنانى ص ١٠٢ .
غرثى أى جوعى

سـئلت فلم تبـخل ولم تعط طائلاً فـسـيـان لا ذم عليك ولا حَمْدُ

وأنت امـرؤ لا الجـود منك سـجـيةٌ فـتـعطى ولا يـعـدى على النائل الوجـد

فهو يسخر منه بسلب الفضيلة المحببة لدى العربى المتمثلة فى الجود والكرم فهو فى نظره لا يستحق ذماً ولا حمداً والجود ليس طبيعة فيه والفتى لا يعين على العطاء إنما الذى يعين هو كرم النفس وسماحتها [1] .

وهكذا كان أسلوبه ساخراً فى هجائه لعتيبة حيث سخر من المثالب النفسية التى يتصف بها .

ومن ذلك قول حسان بن ثابت يسخر من قيس بن الخطيم :

فـلا تعـجلن يا قـيس واربع فـإنما قـصـاراك أن تلقى بكل مـهند

حـسـام وأرمـاح بأيدى أعـزة مـتى تراهـم يا ابن الخطيم تبلد

فـقـد ذاقت الأوس القـتـال وطردت أنت لـدى الـكـنـات فـى كـل مـطـرد

فنا غ لدى الأبيـات حـوراً نواعـمـاً وكـحـل مـآقـيك الحـسـان بأثمـد

فنجده يستهزىء به متهكماً من نقائضه الخلقية ويسلبه فضائل الرجولة ويسخر منه ويصفه بأنوثته وأنه خليق أن يبقى قعيد البيوت والنساء وتكحيل جفونه وتزيينها مثلهن وأنه ليس جديراً بالنزال وبالقتال . ومن هنا تتحقق الصورة الساخرة الضاحكة بسلبه الفضائل النفسية حيث يصفه بالجبن وملازمة النساء وهم يذيقون الأوس مر القتال والطرد ومن هذا أيضا أسلوب حسان الساخر الموجه " لهذيل " قائلاً :

---

(١) ديوان الحطيئة ص ٢٦٨ .
الوجد أى اليسار .

إن سرك الغدر صرفاً لا مزاج له فأت الرجيع وسل عن دار لحيان

قوم تواصوا بأكل الجار كلهم فخيرهم رجلاً والتيس مثلان [1]

وهكذا نجد حسان يسخر منهم بسلبهم الفضائل النفسية ورميهم بالمثالب والانتقاص من الفضائل وبموقفهم السلبى تجاه جيرانهم فيوصفهم بقلة الوفاء لحق الجار عليهم ثم بغدرهم يوم الرجيع . ثم يختتم هذه السخرية اللاذعة بتشبيهه أحكم من فيهم بالتيس ولاشك أن هذا قمة التوبيخ والاستهزاء فإذا كان أحكم من فيهم مثل الحيوان الذى لا حول له ولا قوة فماذا يكون عامة الناس فيهم وكأنهم حيوانات كسولة قليلة العمل .

ومن ذلك أيضا قول من عُمِيرةُ بن جُعَل فى السخرية من قومه " بنى تغلب " فقال [2] :

كساها الله تغلب ابنه وائلٍ من اللؤم أظفاراً بطيئاً نصولها

فمابهم أن لا يكونوا طروقه هجانا ولكن عفرتها فحولها

ترى الحاصن الغراء منهم لشارف أخى سلّةٍ قد كان منه سليلها

إذا ارتحلوا من دار ضيم تعاذلوا عليهم وردوا وفدهم يستقيلها

فنجد عُمِيرة بن جعل يسخر من رجلين ذكر اسمهما فى البيت رقم (٧) من

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ١٥٧ تحقيق الدكتور سيد حنفى حسنين وحسن كامل الصيرفى طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

(٢) المفضليات ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ . نصولها : أى خروجها من موضعها ، الطروقة هى الناقة بلغت أن يضربها الفحل ، الهجان أى الخالص الحسب الكريم ، عفرتها أى ألزقتها بالعفر وهو التراب . يقول لم يؤتوا فى لؤمهم من قبل أمهاتهم إنما أتوا من قبل آبائهم ، الحاصن أى الكريمة العفيفة ، الشارف أى الكبير ، السله أى السرقة ، سليلها أى ولدها ، تعاذلوا أى لام بعضهم بعض يريد أنهم من ذلهم إذا أخذتهم العزة فرحلوا عن متزل الذل أدركهم ذلهم .

القصيدة . يسخر منهم سخرية تضعف من شأنهم وتسلبهم الفضائل النفسية المتعارف عليها فى عصرهم فيجعل اللؤم متأصل فيهم موروث بينهم عن آبائهم وأن المرأة الكريمة منهم تتزوج الرجل المسروق النسب أى الذى ليس لأبيه كما نجد استهزائه بهم وبطبيعتهم الخلقية التى تقبل الاستكانة والضعف من سجيتهم بل يجعل سجيتهم تشتاق إليه وكأنهم مصدر لهذه الصفات السيئة .

ومن السخرية الموجهة إلى الشخص المنتقد :

(٧) السخرية من الشخص المنتقد برسم صورة كاريكاتيرية مضحكة له .

ولقد شاع فى العصر الجاهلى أن يرسم الشاعر صورة مضحكة كلامية عن طريق ابداع صور جديدة مبتكرة للتنفير من شخص ما والانتقاص من قدره بعبارة بسيطة قد لا تتعدي بيت الشعر ولكنه يركز فيها على النقاط المثيرة للضحك والاستهزاء والاستخفاف الهادف الذى ينبىء عن استخدام العقل فى رسم هذه الصورة الساخرة وإلى ذلك ذهب الدكتور " حامد عبده الهوال " فقال :

" فتبدو كأنها لا تنبعث عن عاطفة ما عند قائلها لأنها تخاطب العقل وتسعى إلى أن يكون الجو حولها مشبعاً بالإدراك والوعى حتى تستطيع أن تثير الضحك السريع لتسلط ضوءاً أكثر سرعة على الأشياء التى لا تناسب الحياة والتى يمكن أن نصفها بأنها لا تليق بالفرد أو الجماعة وهى عندما تسلط هذا الضوء السريع تخدم فكرة عميقة ولكنها تريدها أن تكون عابرة ، حتى يمضى كل شىء فى خفة ونشاط " (١) .

---

(١) السخرية فى أدب المازنى للدكتور حامد عبده الهوال ص ١٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م .

ومن هذا نرى قول الأعشى فى السخرية من " يزيد الشيبانى " قال :

أبلغ يزيد بن شيبان مألكه أبا ثبيت أما تنفك تأتكل
ألست منتهيا .. عن أثلتنا ولست ضائرها - ما أطت الأبل
كناطح صخرة يوماً ليفلقها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل
تغرى بنا رهط مسعود وإخوته عند اللقاء فتردى - ثم تعتزل

فنلاحظ فى هذه الأبيات التى هى من قصيدة طويلة للأعشى [1] يختمها بهذه السخرية الشديدة الألم فى الشخصية الموجهة إليها .

فقد صور خصمه بصورة استهزائية مضحكة يملؤها بالسخرية اللاذعة وهذا هو الغالب على هجاء الأعشى حيث أنه يهتم بتصوير خصمه بصور تشبه الكاريكاتير المضحك .

وسيتضح ذلك فى كل جملة على حدة فيقول " أما تنفك تأتكل - فلو تأملنا فى الحروف التى تتكون منها الكلمتان فنجد فى تتالى هذه الحروف له أثر بالغ فى تأدية المعنى الذى يريد تصويره من السخرية والشماتة بالعدو الذى يأكله الغيظ . ثم نتأمل مخاطبته ليزيد بكنيته قائلاً " أبا ثبيت " لم يكن إلا زيادة فى التهكم والسخرية كأنه لا يعتنى به ولا يهتم ولا يعبأ ثم يزيد الأسلوب تهكماً وسخرية فى البيت التالى حيث يبدأه بهذا الاستفهام التوبيخى الانكارى عن أن يكون خفى عليه أصلهم وعزهم وقوله " ما أطت الأبل " أى حين ترأم ولدها وبلغ التهكم والسخرية أشدها فى هذا البيت الذى يصوره فيها بالتيس الأحمق الذى ينطح الصخر بقرونه

(١) ديوان الأعشى تحقيق كامل سليمان دار الكتاب اللبنانى الطبعة الأولى ص ١٥٢ .
مأكلة أى رسالة . تأتكل أى تحتك من الغيظ " تأكل الرجل وائتكل أى هاج وكاد يأكل بعضه بعضا ، أثلتنا أى أصلنا وعزنا ، ضرب له المثل بشجرة الأثل ، أطت أى أتت تعباً أو حنيفاً أو حين ترأم ولدها ، الوعل هو تيس الجبل ، تردى أى توقع فى الهلاك .

فهو يستخف به ويستهزىء به ثم يقول " وأوهى قرنه الوعل " فهو يجعله كالحيوان الذى له قرون أسلوب تهكمى استهزائى ساخر فنجد رسمه له بهذه الصورة الكاريكاتيرية المضحكة والمثيرة لغزيرة الضحك النابع من الاستهزاء والاستخفاف . ثم يسخر منه لفعله الشنيء ومسلكه الخسيس الجبان وهو إذ يوقع بين الناس وتشتعل العداوة بينهم ثم يتجنب القتال فى قوله " تغرى " فهو يسخر منه لأنه أثار العداوة بين قوم الأعشى ورهط مسعود بن قيس بن خالد ، فلما اضطربت وزاد شرها على ما توقعته حماقته وبلاهته وفساد رأيه ، ذعر ذعراً شديداً وقعد يرتعد خوفاً .

كل هذا التصوير الكاريكاتيرى الضاحك يثير الضحك والاستهزاء ممن يتصفوا بهذه الصفة .

والجدير بالذكر أن تقول أن البيت فيه إيغال وهو عيب حيث أنه تم كلامه إلى قوله " قرنه " ثم احتاج إلى القافية فقال " الوعل " مفضلاً إياه على كل ما ينطح لأنه ينحط من قمة الجبل على قرنه فلا يضره [1] .

ومن هذا أيضا قول عروة بن الورد وهو أحد شعراء الصعاليك متهكماً من أحد الصعاليك ساخراً منه فقال [2] :

لحا الله صعلوكاً إذا جن ليله ... مضى فى المشاش آلفاً كل مجزر

ينام عشاء ثم يصبح قاعداً ... يحث الحصا عن جنبه المتعفر

يعين نساء الحى ما يستعنه ... فيضحى طلبى كالبعير المحسر

---

(١) معانى التراكيب للدكتور عبد الفتاح لاشين جـ٢ ص ٢٣٠ دار الطباعة المحمدية .

(٢) نظرات فى الأدب الجاهلى للدكتور أحمد عبد الغفار عيد ص وانظر ديوان عروة بن الورد والسموأل ص ٣٧ دار صادر بيروت .

لحاه الله أى قبحه ولعنه ، المشاش أى رؤوس العظام اللينة التى يمكن مضغها ، يحث الحصى أى يزيله والكلام كله على سبيل الكناية أى أنه كسول متخاذل لا ينساق لعمله من الغزو ، الطليح والمحسر أى المتعب المضنى .

فنلتأمل كيف رسم عروة بن الورد هذه الصورة الكاريكاتيرية الضاحكة من هذا الصعلوك فهو يسخر تجاه ما يسلكه من أنه يكتفى بما يجود به أهل الكرم عليه من أجل سد حاجته من الطعام فهو يسخر من تكاسله وتركه العمل .

ثم يرسم له صورة يستخف به من خلالها ويستهزىء منه فيقول فى كلمة " المشاش " كأنه يأخذ فضلات الناس من الطعام أو ما لا يؤكل عادة فهو يأكله كما يأكل الكلب العظم .

فيرسمه رسم كاريكاتيرى بالكلب الذى ينتظر الحين بعد الحين ما يجود به أهل الكرم عليه . وقوله " ينام عشاء " أسلوب تهكمى وساخر يتضح من خلاله أن كسول ويؤكد ذلك فى قوله " يحث الحصا عن جنبه المتعفر " كناية عن كثرة نومه ودوام كسله حيث تعفرت ثيابه من كثرة نومه .

وقوله " يعين نساء الحى " ولاشك أن فى هذا سخرية كاملة ولاذعة منه حيث أن النساء الموسرات يجعلونه كالخادم فيقضى لهم مطالبهم مقابل لقمة عيشه وهو من هذا العمل الضئيل يصبح مجهداً مثل الجمل المجهد فيرسم له صورة كاريكاتيرية أخرى وجه إنسان وجسد جمل نائم أكثر وقته .

ومن هذا أيضا قول زهير بن أبى سلمى فى آل حصن :

وما أدرى وسوف أخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء[1]

فإن تكن النساء مخبآت فحق لكل محصنة هداء

---

(١) شرح ديوان زهير ص ٧٣ . بنو حصن هؤلاء من كلب ، الهداء أى الزفاف يقال : قد هديت العروس إلى زوجها هداء وهى هدية وهدى .

ولا ريب أن زهير قد أبدع فى رسم صورة كاريكاتيرية مضحكة من " آل حصن " فيرسم أجسامهم أجسام نساء ووجههم وجوه رجال .

ولاشك أن هذه صورة تنزع الضحك من نفس المهموم ثم أن تبريره لهذا الرسم الكاريكاتيرى يتضح من تشككه فهم فى هيئتهم رجال وفى أفعالهم نساء فهو لا يدرى من أى جنس هم ينتمون إليه فيأتى لهم بهذه الصورة المضحكة .

" ولا ريب أن إظهار الشاعر نفسه فى صورة المتشكك أشد وقعاً فى نفسية المهجو لأنه بذلك يسلبه صفات الرجولة وبالتالى يحرمهم من ملامح الأنوثة فهم لا يعدون فى الرجال عند المباهلة ولا يحسبون مع النساء عند المنازلة " وهو لذلك من أشد الهجاء وأمضه [1] .

ولنختم كلامنا عن الرسم الكاريكاتيرى الساخر فى العصر الجاهلى بالسخرية الموجهة من أوس بن غلفاء الهُجَيمى التميمى إلى يزيد بن الصعق الكلابى ومنه قوله :

فأجر يزيدُ مذموماً أو انزعِ ... على عَلَب بأنفك كالخطام [2]

وإن الناس قد عَلِموك شيخاً ... تهوك بالنُّواكه كل عام

وإنك من هِجاء بنى تميم ... لَمزداد الغرام إلى الغرام

هم منوا عليك فلم تثبهم ... فتيلاً غير شتْم أو خصام

وهم ضربوك ذات الرأس حتى ... بدت أم الدماغ من العظام

---

(١) العمدة لابن رشيق القيروانى تحقيق مفيد قميحة جـ٢ ص ٣٨١ طبعة دار الكتب العلمية بيروت لبنان .

(٢) المفضليات للمفضل الضبى ص ٣٨٧ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون الطبعة السابعة دار المعارف . العلب أى تؤخذ حديده أو نحوها فيقشر بها الأنف حتى يبدو العظم يقول أجر إلى عداوتنا أو اكفف على صغر معلوب الأنف ، التهوك أى التحير والتردد ، النواكه أى الحمق ، الغرام أى الشر الدائم ، ضربه ذات الرأس أصاب أم رأسه ، أم الدماغ أى الجلدة التى تحيط بالدماغ وتجمعه .

لنتأمل هذه السخرية اللاذعة برسم صورة كاريكاتيرية بارعة للمسخور منه ويبدىء هذه الصورة برسم " يزيد بن الصعق الكلابى " فى صورة رجل قد وصم أنفه بعلامة مميزة فيظهر العظم منه . صورة تدعو إلى الضحك ويبدأ هذه الصورة الكلامية بكلمة " فأجر " الفاء الدالة على التعقيب أى فعاقبه لدخول يزيد الحرب هو هذه العلامة المميزة فى أنفه وهذا هو كل أجره الذى يحصل عليه . ويزيد الصورة استهزاء وسخرية حيث يجعله كالبعير فى أبشع صورة له وهى صورة إذلاله وإظهار ضعفه بوضع حبل فى أنفه .

صورة كاريكاتيرية كلامية فى العصر الجاهلى ولو رسمت بالكاريكاتير فى عصرنا الحالى لكانت غاية فى السخرية والاستهزاء بهذا الذى يخرج من الحرب بعلامة مميزة فى أنفه .

ويستمر فى هذا الأسلوب الساخر فيرميه بالحمق ويجعل حماقته فى تردده فى إبداء الرأى وهو أمر معروف لدى الناس جميعاً عنه واستخدامه (قد) تفيد التحقيق فى قوله " قد علموك شيخاً " فلم تثبهم فتيلاً أى سبق أن مَنّ قوم تميم عليك فلم ترد هذا الجميل بل قابلته بالنكران . وهذا أسلوب ساخر لأنه لم يقابل الكرم بالوفاء بل قابله بالنكران وهذه سمة خسيس الطبع . وهكذا كانت هذه الصورة تجمع بين أمرين السخرية وهى الاستهزاء به فى دخوله الحرب وجزاءه منها هذه العلامة المميزة له . وصورة تهكم من حيث الاستخفاف به لعدم مقابلة كرم الآخرين له بالوفاء بل بالغدر وهذه سمة خسيس الطبع ودنىء الأصل ويتفقان فى أن غايتهم هى الإصلاح والتقويم .

وبذلك نرى أن السخرية والتهكم كانا من ملامح الشعر الجاهلى ووجدنا السخرية المرة التى إلى حد ما لم يسلم منها أحد وقد نبه إلى ذلك الجاحظ فى كتابه حيث قال :

" إلا أن يسلم بعض ذلك عليهم بالخمول فكناك بالخمول رقة ولؤما وقلة ونزالة " [1] .

ولعل هذا النوع من الشعر أطلعنا على مدى ما كان يعلمه الشاعر الجاهلى وكيف أخذوا علم الأخبار وعلم دقائق الأسرار فهو كان لا يألوا جهداً فى التتبع لسلبيات المجتمع الجاهلى والتعبير عنها ولو كان هذا التعبير سيؤدى إلى إيلام الآخرين فتعتبر السخرية فى الشعر الجاهلى هى معيار الصدق ويعتبر فى رأيى هو السجل الذى يحفظ كل مساوىء المجتمع الجاهلى ونظامهم الاجتماعى وهو بدوره ساعد على الإصلاح والتقويم ولولا السخرية من سلبيات المجتمع الجاهلى لما ظهرت إيجابياته وهذا التتبع لخبايا وأسرار العرب فى الجاهلية من شعر السخرية والتهكم ساعد على توجيه الحياة وعمل على تقوية روح المنافسة لأن القبائل تعير بما تأتى من أساليب تدعو إلى الخزى والعار فتقف القبائل على عورات الأخرى وتذيعها وتنشرها ويقف الشعراء على عورات من يأتى بسلبية من سلبيات العادات والتقاليد التى تتوافق والبيئة الجاهلية ويذيعونها وينشرونها ومن هنا أحصيت أعداد القصائد التى قيلت فى السخرية .

وهذه القصائد تثير دوام الاستخفاف والاستهزاء فى نفس المتلقى وقد قال حميد بن ثور فى ذلك :

قصائد تستحل الرواة نشيدها ... ويلهو بها من لاعب الحى سامر
يعض عليها الشيخ إبهام كفه ... وتخزى بها أحيائكم والمقابر[2]

---

(١) الحيوان للجاحظ ص ٢٥٣ تحقيق عبد السلام هارون القاهرة .
(٢) ديوان حميد بن ثور الهلالى تحقيق الميمنى ص ٨٩ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥١ القاهرة

الدور الإجتماعى لشعر السخرية :

هذا وقد قام شعر السخرية بدور اجتماعى فقام الناس بتجنيب الأشياء التى تدفع الشعراء إلى السخرية منهم وهذا الأمر ساعد على توجيه الحياة وحفظ البناء الاجتماعى بالسخرية من الصفة السيئة عن طريق التعريض بها والنهى عنها وعن فعلها بإظهار ذلك فى صورة مستهجنة منفرة فأصبح للسخرية دور مهم فى توجيه الحياة العربية بما تحمله من مضامين اجتماعية وأخلاقية .

وقد ساعد ذلك على تمسك العرب بما تعهد من أخلاق والحرص على إخفاء المثالب وستر العيوب خوفاً من شاعر السخرية الذى يكشف الأسرار ويعريها ويجعلها سجل باق ما بقى الزمن لأن الذى يقولها شاعر يتصف بالصدق والفراسة وهو " يظن فيحقق " فتجنبوا سخطه بالبعد عن الصفات المنبوذة التى تدعو إلى السخرية فالسخرية قد حفظت المجتمع الجاهلى وكان لها دورها البارز فى توجيه حياتهم والمحافظة على مبادئها فالساخر فى شعره قد يرى ضرورة الإصلاح الاجتماعى عن طريق الاحتفاظ بالقيم والمبادىء الاجتماعية وذلك لأن الساخر يسخر بكل ما يعيب الخصم .

والأسلوب الساخر من الأساليب التى تجرح المشاعر وتخدش العواطف فهى نوع من الحرب اللسانية عدتها المثالب والنقائص وأدواتها الحقد والضغائن - والأسلوب الساخر لا يزال يتجدد فى العصور التالية فوجدناه فى العصر الأموى ما عرف بالنقائض . وأننى أرى :

أن هناك علة لوجود فن السخرية حتى فى وقتنا الحاضر فقد وجدناه فى صحفنا اليومية وهو ما يعرف بالكاريكاتير ولعل العلة الحقيقية كما يتراءى لى هو

غرض التطهير النفسى والسلوكى بإظهار سلبيات العصر التى تقال فيه فهو أسلوب نقدى قد يهدف إلى معالجة السلبيات والقضاء على النقائض والعيوب وهى غاية نبيلة ومطلب مشروع فالأدب الساخر وإن كان لاذعاً لمن يوجه إليهم وينتقدهم فهو فى الأساس والغاية يهدف غالباً إلى التقويم واعتدال السلوك وذلك بلاريب هدف يسعى إلى بلوغه المصلحون فى كل عصر وفى كل مجتمع .

وهذا يدفعنا للتعرف على :

القيمة الأدبية للسخرية الجاهلية :

إذا كانت هناك قيمة تاريخية وإجتماعية للسخرية من حيث أنها تكشف عن ظواهر الحياة بألوانها المختلفة فى هذا العصر ولولا السخرية لما عرفنا كثير من مثالبهم بالإضافة إلى أن الأدب الساخر قد توفرت فيه القيم الفنية وهى التى أكسبته جماله وقوته وأضفت عليه ملامح التعبير الفنى ذلك الطابع الذى يظهر من خلاله مهارة الشاعر وقدرته الابداعية وتتمثل القيمة الأدبية فى أن لغتها جاءت ممثلة للبيئة الجاهلية فى الغالب بالإضافة إلى تأثر خيال الساخر بهذه البيئة ولم يخرج إلى أفاق أوسع من أفق البيئة الجاهلية إلا قليلاً ... وهذا يعنى أن بيئة الشاعر حددت خياله بالنسبة إلى معالمها المحدودة فى نظره .

أما من ناحية طبيعة التعبير فى السخرية الجاهلية نرى أثر البيئة فيه كذلك بالإضافة إلى حيوية التعبير فى السخرية الجاهلية وقد تحققت هذه الحيوية من خلال أصالة التعبير والنزعة الحسية التى يظهر من خلالها بالإضافة إلى المقاطع الموسيقية البارزة .

كما أننا رأينا أن الفن الشعرى الجاهلى الساخر يحرك الشعور والإحساس ويوجه الفكر والخاطر كما أنه يجعل الإنسان ينفر من تلك المثالب بالإضافة إلى أنه يعطينا المزيد من التصوير الفنى الذى يعطينا بدوره شىء من المرح والمتعة والنشوة والإثارة .

وقد رأينا أيضا أن السخرية تشكل جانباً إنسانياً ضخماً فى مجال التراث الجاهلى بالإضافة إلى أنها :

أصبحت تشكل جانباً هاماً فى الأدب العربى بكل ما تمثله من صور واتجاهات وأحاسيس ومشاعر .

ومن أجل أن يكتمل البحث رأيت من الضرورى أن أعرض فن السخرية الجاهلية فى ميزان النقد .

السخرية الجاهلية فى ميزان النقد :

لاشك أن كثيراً من النماذج التى ذكرناها فى السخرية فى الشعر الجاهلى قد أعجبتنا ووجدنا فيها المتعة التى يجدها الإنسان حين يسمع أو يرى شيئاً بديعاً وإذا بحثنا عن الأشياء التى جعلتنا نشعر بهذا الإحساس وجدنا أن شعر السخرية الجاهلى يحتوى على قيم فنية منها :

(١) النزعة الإنسانية التشخيصية :

وذلك حين يمزج الشاعر عاطفته بالموضوع الذى يتناوله وحين يضفى على هذا الموضوع طابعاً إنسانياً فيجعل التعبير فيه أقرب إلى نفس المتلقى .

(٢) القوة الإبداعية فى التعبير والتصوير :

لأن هذه القوة تجعلنا نشعر أن السخرية تترجم صدق هذا الشاعر

ونستشف من وراءها شخصية قائلها ونتعرف عليها من خلال إبراز الجوانب المادية في الصور التي يعرضها الشاعر أو عن طريق إبراز الصفات المعنوية في إطار حسي ولاشك أن ذلك يمثل قيمة فنية إبداعية للشاعر الجاهلي .

(٣) ارتباطه بالبيئة الجاهلية :

فنلاحظ أن الشعر الساخر يرتبط عادة بالبيئة الجاهلية في اختيار الصور التعبيرية التي تكشف عن بعض الألوان التعبيرية لدى شعراء السخرية في هذا العصر وخاصة في التشبيهات التي جاءت لصنع صورة ساخرة وهي تعبيرات تفتح أمام فكرنا باباً للتخيل واحتمالات كثيرة للسخرية وقد وجدنا ذلك في نماذج متعددة سبق أن ذكرناها .

وإذا كانت هذه هي الأشياء التي وجدناها في الشعر الساخر فما هي الأشياء التي وجدناها في الشاعر الساخر .

هناك أشياء توفرت في الشاعر الساخر ومن ذلك :

(١) توفر غريزة الغضب لديه :

وهذه الغريزة هي التي تحرك مشاعره وقد تهدف هذه الغريزة إلى الإصلاح وقد تهدف إلى الانتقاص من قدره وقد تهدف إلى مجرد الدعابة والفكاهة وقد تهدف إلى السخرية والاستهزاء والاستخفاف به .

(٢) النقد :

لابد أن يتوفر في الساخر إبداع الناقد الذي يستطيع تمييز الجيد من الرديء فيظهر الساخر كناقد في قمة نضوجه الفني ويعتمد في تمييز الرديء من

الجيد على ذكر النقائض وتصوير مواقف الخسة وقد أشار إلى ذلك أستاذى الدكتور عبد الله حسين فى قوله [1] :

" والسخرية أساساً تعتمد على سلب الفضائل والرمى بالنقائض وتصوير مواقف الخسة والضعف والذلة والهوان التى يتعرض لها المهجو ومن هذه النقائض التى ينفر منها العرب – الجبن – البخل ... إلخ .

هذا وقد :

اتخذ الساخر المظاهر الجسدية والنواحى الشكلية مادة لسخريته من الشخصية التى يوجه إليها وهذا بدوره يدل على دناءته فى الأوصاف الحسية والمعنوية ويكون له تأثير بالغ فى نفسيته وقد أشار إلى ذلك الدكتور عبد الله حسين بقوله " ولعل بعض المظاهر الجسدية والنواحى الشكلية فى الإنسان كانت تتخذ مادة للهجاء باعتبارها ذات دلالة على الخصال النفسية وذلك مثل القبح والدمامة والعور ... وغير ذلك مما قد يتخذ وسيلة للهجاء ... ويبدو أن شعراء الجاهلية ... اكتفوا فى كثير من الأحيان بالتهكم والتشكيك والتعريض والتلميح إذ كان بذلك وقع سىء على المهجو وتأثير بالغ فى نفسيته – وقد أجمع النقاد وأهل البصر بالشعر أن أجود ما فى السخرية أن يسلب المهجو الفضائل النفسية بالإضافة إلى :

٣ – الصدق فى السخرية :

ويعد الصدق فى السخرية من أسباب قوتها أما إذا كانت السخرية كاذبةً فإن واقع الأمر يجعل الناس لا يصدقون الشاعر ويعدونه بذلك بذىء اللسان .

---

(١) ملامح العبقرية وشواهد الإبداع فى الشعر الجاهلى للأستاذ الدكتور عبد الله حسين طبعة أولى ١٩٩٠ المكتب العربى ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢.

هـــذا :

وكل النماذج التى عرضناها توفرت فيها هذه العناصر ولمحنا من خلالها شخصية قائلها وكل هذا يعنى أننا وجدنا فى الفن الشعرى الساخر الجاهلى عناصر اللذة والمتعة التى تجعلنا دائماً نقدر قيمته ونجزم أن فن السخرية له مكانة فى الشعر الجاهلى بل لقد ظهر فى قمة نضوجه الفنى التى يبين قدرة قائله الإبداعية وبهذا يعد الفن الشعرى الساخر عنصر من العناصر التى أبدع فيها الشاعر الجاهلى .

المصادر والمراجع

(١) القرآن الكريم .

(٢) أساس البلاغة للزمخشرى دار صادر بيروت طبعة أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

(٣) أدب الفكاهة عند الجاحظ للدكتور أحمد عبد الغفار عبيد طبعة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

(٤) أمالى المرتضى الطبعة الأولى مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٥هـ - ١٩٠٧م .

(٥) الاتجاه الساخر فى أدب الشدياق لشوقى محمد المعاملى مكتبة النهضة المصرية .

(٦) الأدب المقارن للدكتور طه ندى دار المعرفة الجامعية ١٩٩٥م .

(٧) الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبد البر تحقيق محمد البجاوى مكتبة النهضة - القاهرة .

(٨) الأمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى - تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين طبعة التأليف ١٩٤٢م .

(٩) البخلاء للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون طبعة بيروت .

(١٠) الحيوان للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون طبعة بيروت .

(١١) السخرية فى أدب المازنى للدكتور حامد عبده الهوال الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٢م .

(١٢) الشعر الجاهلى منهج فى دراسته وتقويمه للدكتور محمد النويهى - الدار المصرية للطباعة القاهرة .

(١٣) الشعر الجاهلى للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى دار الكتاب اللبنانى - بيروت - لبنان .

(١٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدنيورى تحقيق أحمد محمد شاكر - دار المعارف - القاهرة .

(١٥) الشماخ بن ضرار حياته وشعره للدكتور صلاح الدين الهادى دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .

(١٦) الصناعتين لأبى هلال العسكرى تحقيق مفيد قميحة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

(١٧) العمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيروانى دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .

(١٨) العقد الفريد لابن عبد ربه شرح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين طبعة القاهرة ١٩٦٥م .

(١٩) الفن ومذاهبه فى النثر العربى للدكتور شوقى ضيف طبعة سادسة دار المعارف .

(٢٠) المرأة فى الشعر الجاهلى للدكتور أحمد محمد الحوفى دار النهضة بمصر .

(٢١) المعانى الكبير لابن قتيبة طبعة حيدر آباد الهند ١٩٤٩م .

(٢٢) المسرحية للدكتور عمر الدسوقى الطبعة الخامسة دار الفكر العربى .

(٢٣) المعجم المفصل فى الأدب للدكتور محمد التونجى دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

(٢٤) المعجم الأدبى جبور عبد النور - مادة سخر .

(٢٥) المفضليات للضبى تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون الطبعة السابعة ١٩٤٢م دار المعارف .

(٢٦) الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى الجرجانى تحقيق وشرح محمد أبو الفضل ابراهيم ومحمد البجاوى طبعة عيسى الحلبى .

(٢٧) الهجاء الجاهلى صوره وأساليبه الفنية للدكتور عباس بيومى عجلان طبعة دار المعارف ١٩٨٢م .

(٢٨) تاريخ آداب العرب للأستاذ مصطفى صادق الرافعى دار الكتاب العربى بيروت - لبنان طبعة ثانية ١٩٧٤م .

(٢٩) تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد الأنصارى طبعة دار الشعب القاهرة .

(٣٠) حصاد الهشيم لعبد القادر المازنى طبعة الشعب ١٩٦٩م .

(٣١) دراسات فى الأدب الجاهلى للدكتور أحمد عبد الغفار عبيد دار الحضرى للطباعة .

(٣٢) ديوان حميد بن ثور الهلالى تحقيق الميمنى طبعة دار الكتب المصرية ١٩٥١م القاهرة .

(٣٣) ديوان زهير بن أبى سلمى للإمام العباسى أحمد مصورة من طبعة دار الكتب .

(٣٤) ديوان عروة بن الورد والسموأل دار صادر بيروت .

(٣٥) ديوان حسان بن ثابت تحقيق سيد حنفى وحسن الصيرفى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

(٣٦) ديوان الحطيئة تحقيق دكتورة نعمان محمد أمين مكتبة الخانجى القاهرة طبعة أولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م مطبعة المدنى .

(٣٧) ديوان السموأل تحقيق الشيخ محمد حسن بن آل ياسين طبعة بغداد ١٩٥٥م .

(٣٨) ديوان الشماخ بن ضرار تحقيق صلاح الدين الهادى طبعة دار المعارف .

(٣٩) ديوان النابغة الذبيانى تحقيق أبو الفضل إبراهيم دار المعارف بمصر .

(٤٠) ديوان الأعشى تحقيق كامل سليمان دار الكتاب اللبنانى الطبعة الأولى .

(٤١) رسالة الصداق والصديق لأبى حيان التوحيدى طبعة الجوانب قسطنطينية .

(٤٢) شرح القصائد العشر للتبريزى تحقيق عبد السلام الحوفى دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

(٤٣) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى نشر أحمد أمين وعبد السلام هارون ١٩٥٢م القاهرة .

(٤٤) شرح ديوان زهير بن أبى سلمى للإمام أبى العباس أحمد بن يحيى نسخة مصورة من طبعة دار الكتب ١٣٦٣هـ - ١٩٢٤م الدار القومية للنشر القاهرة .

(٤٥) قضايا معاصرة فى الأدب والنقد للدكتور محمد غنيمى هلال طبعة نهضة مصر القاهرة .

(٤٦) كتاب الشعر للدكتور مصطفى الشكعة دار الكتاب اللبنانى - بيروت - الطبعة الثانية ١٩٧٤م .

(٤٧) لسان العرب لابن منظور دار صادر بيروت - مادة سخر .

(٤٨) مختارات أدبية للدكتور أحمد عبد الغفار عبيد طبعة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م .

(٤٩) معانى التراكيب للدكتور عبد الفتاح لاشين دار الطباعة المحمدية .

(٥٠) معجم الأدباء لياقوت الحموى طبعة دار المأمون ١٩٣١م .

(٥١) معجم المصطلحات العربية فى اللغة والأدب - مادة سخر .

(٥٢) المعجم المفصل فى الأدب - إعداد محمد التوبجى - دار الكتب العلمية ببيروت - لبنان ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م .

(٥٣) ملامح العبقرية وشواهد الابداع الفنى للدكتور عبد الله حسين طبعة أولى ١٩٩٠م المكتب العربى للطباعة .

(٥٤) نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى دار الكتب المصرية .